



الانعام والانععام

في

تفسير سورة الانعام

تأليف

الدكتور تقي الدين الهلالي

رحمه الله تعالى

الناشر

ادارة البحوث الاسلامية بالجامعة السلفية بنارس

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

رجب ١٤٠٧ هـ = مارس ١٩٨٧ م

بالمطبعة السلفية ، بنارس ، الهند

يطلب من

- ١ - المكتبة السلفية ، ريو دي تالاب ، بنارس - ٢٢١٠١٠
- ٢ - مكتبة جريدة ترجمان ٤١١٦ ، اردو بازار ، جامع مسجد دهلي - ١١٠٠٠٦
- ٣ - الدار السلفية ، ٦/٨ - اء ، حضرت تيريس ، شيخ حفيظ الدين
بمبئي - ٤٠٠٠٠٨

مكتبة الدكتور
محمد الفالح جزاء الله خير



فهرست كتاب الإلهام والإنعام في تفسير سورة الأنعام

- ١ مقدمة في بيان فضل الكتاب والسنة في إصلاح البشر
- ٢ كيف نزلت سورة الأنعام وما جاء في فضلها من الأحاديث
- ٣ معنى بربهم يعدلون
- ٤ الدليل على البعث
- ٥ الرد على الجهمية القائلين بأن الله في كل مكان
- ٦ الفرق بين الجهمية والمتبعين للنبي - ﷺ وأصحابه
- ٩ حديث: إن رحمتي تغلب غضبي
- ١٠ حاجة قاهرة للمشركين
- ١٠ قف على سخافة عقول المشركين في عبادتهم لأمثالهم المخلوقين
- ١١ دعاء نبوي يقال بعد الطعام
- ١١ بعض آيات البراءة من الشرك وأهله
- ١٦ دليل آخر على البعث
- ١٧ قف على كلام مفيد في ذم الحياة الدنيا
- ١٧ بيان بعض الآيات التي سألها المشركون رسول الله ﷺ تحتها
- ٢٣ وجه المماثلة بين الناس وبين سائر أنواع الحيوان
- ٢٦ الفرق بين المشركين الأولين ومشركي هذا الزمان
- ٣٠ بيان معنى الشفاعة وشروطها

- ٣٠ ابطال الشفاعة التي يعتقدها المشركون
- ٢٨ حديث عائشة وسؤالها للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد عليك من أحد
- ٤٠ حديث ابن عمر مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله
- ٤٢ إثبات العلو والفرقية لله تعالى
- ٤٣ غاظ شرك مشركي هذا الزمان وكونهم أشد مشركي العرب في الزمان الأول
- ٤٤ حديث ثوبان: أن الله زوى لى الأرض
- ٤٥ حديث: لا ترجعوا بعدي كفارا
- ٥٢ كيف عبت الاصنام والاثوان والانسان
- ” وصف دقيق مما يحدث في هذا الزمان من ذلك
- ٥٣ حديث: اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد
- ٥٤ حديث: لا تتخذوا قبري عيداً
- ” الغلو في قبور الصالحين أصل عبادة الاوثان
- ٥٥ حديث البخارى: عن ابن عباس في ذلك
- ” حديث أبي واقد الليثي: في ذكر الشجرة التي كان المشركون ينوطون بها اسلحتهم
- ٥٦ خبر قبر دانيال وما فعل به الصحابة والتابعون
- ” حديث امر عمر: بقطع شجرة بيعة الرضوان
- ” حديث أم سلمة: أولئك قوم اذا مات فيهم الرجل الصالح الخ
- ٥٧ حديث: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبياءهم مساجد
- ” حديث: ألا فلا تتخذوا القبور مساجد
- ” حديث: جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً
- ” حديث ابن مسعود: ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء

- ٥٧ حديث : لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور
- ٦٣ دعاء الاستفتاح عن النبي ﷺ في صلاة الليل
- ٦٥ اذا عجز المشركون عن الحجّة يخوفون الموحدين نعمة آلهتهم
- الرد على المنجمين الذين يزعمون معرفة ما يحدث من الحوادث بالنظر
الى النجوم
- ٧٥
- ٧٨ بيان ان خط الرمل لا يوصل الى شئ من المغيبات
- ٨٠ خوف الانس من الجن واستغلال الدجاجلة لذلك الخوف
- ” قف على أن الصرع مرض من أمراض الأعصاب ولا علاقة له بالجن
- ٨١ الخوف من الجن يسبب أمراضا كثيرة وينافي التوكل على الله
- ” قصة أبي هريرة مع الجن
- ٨٣ حديث جرير : انكم سترون ربكم عيانا
- ٨٥ محاوره النبي ﷺ مع رؤساء قريش عند عمه أبي طالب حين حضره الموت
- ٩٠ حديث أبي ذر : في شياطين الانس والجن
- ٩٣ ذكر حديث : سؤال القبر
- ٩٤ الذبح لغير الله شرك وان ذكر اسم الله معه
- ٩٥ حديث التواس : البر حسن الخلق
- ” اختلاف الائمة في أكل ما ترك التسمية عليه من الحيوان عمدا أو سهوا
- ” استحلال المرتدين أكل لحم الخنزير والرد عليهم
- ٩٩ الرد على ادعاء التقدم بالحجج القاهرة
- ١٠١ البحث في الانفصال عن الارض والخروج من جّوها

- ١٠٣ كيف يستمتع الجن والانس بعضهم ببعض
- ١٠٤ آيات وعد الله بحسن العاقبة للؤمنين وآيات وعيده بسوء العاقبة لأعدائهم
- ١١٢ الحديث القدسي : انا أغنى الشركاء عن الشرك
- ١١٣ الفرق بين المشيئة الكونية والمشيئة الشرعية
- ١١٧ الرد على المتقدمين للعروبة المطلقة
- ١١٨ التشنيع على دعاة القومية العربية الجاهلية المنتكرين للإسلام
- ١١٩ حديثان في المحافظة على الطعام
- ١٢٢ ما حرم بالكتاب كما حرم بالسنة سواء والدليل على ذلك
- ١٢٣ احاديث في تحريم لحوم الحمر الأهلية والسباع من الوحش والطيير
- ١٢٤ الحلال ما أحل الله والحرام ما حرم الله وما سكت عنه فهو عفو حلال
- ” ولا يتوقف التحليل والتحریم على أذواق العرب وغيرهم
- ” كلام الشافعي في رد التقليد
- ١٢٥ حديث : ان الله فرض فرائض فلا تعبدوها
- ” حديث : الحلال ما أحل الله في كتابه
- ١٢٧ حديث : لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فحملوها فباعوه
- ” مالا يجوز للإنسان أن يأكله لا يجوز له أن يبيعه
- ١٢٩ احتجاج المذنبين بالقدر والرد عليهم
- ١٣١ حديث ابن مسعود : من أراد أن ينظر الى وصية محمد الخ
- ١٣٢ حديث أبي ذر : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة
- ” المبالغة في بر الوالدين من خصائص المسلمين الصادقين
- ” خطر المدارس الفارغة من الدين على أبناء المسلمين

- ١٣٢ قصة في ذلك
- ١٣٣ حديث ابن مسعود: أى العمل أفضل
- " حديث ابن مسعود: أى الذنب أعظم
- " حديث سعد بن عبادة: لو رأيت رجلا مع امرأتى الخ
- " حديث ابن مسعود: لا يحل دم امرئ مسلم
- ١٣٤ حديث ابن عمر: من قتل معاهدا الخ
- " السر في اختلاف عبارة الأندام والاسراء في نرزقكم وإياهم ونرزقهم وإياكم
- ١٣٥ اختصاص الاسلام بالمبالغة في الحث على إكرام اليتيم
- " أول من سن الضمان الاجتماعى عمر بن الخطاب
- ١٣٦ معيار تقدم الأمم فى الماضى والحاضر
- " حديث: أصدق كلمة قالها الشاعر
- ١٣٧ وعيد المطففين فى الكيل والوزن
- " حديث الوعيد: عن طفف المكيال والميزان
- " أنواع الموازين ووجوب الاحتياط
- ١٣٨ فضل الوفاء بالعهد
- ١٣٩ الأركان التسعة التى بها تسعد الأمم
- ١٤٠ خطر التفرق على الأمم
- " حديث ابن مسعود: فى النهى عن التفرق
- " حديث النوراس بن سمعان: ضرب الله مثلا صراطا مستقيما
- ١٤٤ حديث: الايمان بضع وسبعون شعبة
- ١٤٥ أدلة من الكتاب والسنة على فساد التقليد

(ح)

- ١٤٦ منها : حديث اللعان وآثار أخرى وهو بحث مهم
- ١٤٧ رجوع عمر بن عبد العزيز عن قضائه عند ما تبين له أنه مخالف لحكم النبي ﷺ
- ١٤٩ رجوع سعد بن إبراهيم أمير المدينة عن قضائه لما تبين له أنه مخالف
- ” نقل كلام المحافظ ابن عبد البر في رد التقليد
- ١٥١ نقل كلام الإمام المزني في رد التقليد
- ١٥٢ الفرق بين الإتياع والتقليد
- ” قصة عن الإمام ابن هرمز في رد التقليد
- ١٥٣ مناظرة في رد التقليد
- ١٥٤ حديث ابن عباس : من هم بحسنة فلم يعملها
- ” حديث أبي ذر : من عمل حسنة فله عشر أمثالها
- ١٥٥ لا يقبل شيء من الأعمال إلا مع التوحيد
- ” حديث : أناسيد ولد آدم
- ” ما كان يقوله النبي ﷺ إذا أصبح
- ” حديث : في فضل الحنيفية السمحة
- ” حديث : نظر عائشة الى الحبشة وهم يلعبون
- ١٥٦ حديث : يسروا ولا تعسروا
- ” حديث : ضحى رسول الله ﷺ بكسبشين
- ” الاسلام دين جميع الانبياء والرسل وبيان الادلة على ذلك
- ١٥٩ آيات كثيرة من القرآن تدل على توحيد الله
- ١٦١ مذاهب أهل هذا العصر بالنسبة الى الأموال



الإلهام والإنعام ، في تفسير سورة الأنعام

للكاتب تقي الدين الهلالي

الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا
بربههم يعدلون . هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
ولو كره المشركون . اللهم صلى على محمد وعلى آله واصحابه والتابعين ومن تبعهم
باحسان الى يوم الدين .

اما بعد ، فيقول افقر العباد الى ربه الكبير المتعالي محمد تقي الدين بن عبد القادر
الهلالي : لقد مارست الوعظ والدعوة الى الله تعالى منذ عشرات السنين في امم
مختلفة في طبائنها ولغاتها ، فوجدت ان انفع شيء يدخل الاذان بدون استئذان
وتشرح له الصدر ، هو كلام العزيز الغفور ، وحديث النبي المبرور ، فيها احسن
البذور . متى وجدنا تربة صالحة وزارعا يحسن الحرث نبت زرعنا واخرج شطئه واستنفاظ
واستوى على سوقه يعجب الزراع ويغيظ الكفار ، او كشجرة اصلها ثابت وفرعها
في السماء تؤتي اكلها كل حين باذن ربها . وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة
للمؤمنين . الا ان تفسير الوحيين يجب ان يكون في قالب مناسب لاهل الزمان
والمكان مداويا لعنهم حلالمشاكلهم مبشرا للمؤمنين كابنا للظالمين . وقد فسرت سورة
الفتح في كتاب قبسة من انوار الوحي فنفع الله بتفسيرها كثيرا من المؤمنين ، فتحمني
ذلك على تفسير سورة اخرى ، ارجو ان يكون تفسيرها غذاء لروحي ولأرواح
اخواني من طلاب علم الكتاب والسنة وعامة المؤمنين . وهذه السورة هي سورة
الإنعام . ومن الله وحده استمد العون وهو حسبي ونعم الوكيل .

سورة الأنعام

فضائلها

نقل الامام ابن كثير عن الطبراني بسنده الى عبد الله بن عباس قال: نزلت سورة الانعام بمكة ليلة جملة واحدة، حرلها سبعون الف ملك يجارون بالتسبيح. وروى الحاكم في مستدرکه عن جابر قال، لما نزلت سورة الانعام سبح رسول الله ﷺ ثم قال، لقد شبع هذه السورة من الملائكة ما سد الافق. ثم قال صحيح على شرط مسلم. وروى ابن مردويه عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: نزلت على سورة الانعام جملة واحدة، وشيها سبعون الفا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد.

نزولها وعدد آياتها

تقدم انها نزلت على النبي ﷺ بمكة. وعدد آياتها مائة وخمس وستون.

الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم . (الحمد لله الذي خاق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (١) .

المفردات

الخلق . الایجاد على غير مثال سابق . جعل ، بمعنى خلق .
الظلمات ، ظامة الليل وسائر الظلمات . النور ، نور الشمس وما شاكله من الانوار الحسية ، ونور العام و الايمان بالله تعالى وما شاكله من الانوار المعنوية .
والكفر ، ستر الحق وجمعه . وسمى الليل كافرا ؛ لانه يستر الاشياء بظلامه .
قال الشاعر .

حتى اذا الفت يدا في كافر وأجن عررات البيوت ظلامها
وقال ، (في ليله يكثر النجوم غمامها) .

والعدل هنا بمعنى التسوية ، لأن المشركين يجعلون لله اندادا يسوونهم به في
بعض الامور ، كدعائهم وطلب الخير منهم .

المعنى العام

حمد الله نفسه سبحانه ، وفي ضمن ذلك امر لعباده ان يحمده ويثنوا عليه الخير كله
الذي خلق السموات والارض وما فيهما وما بينهما وبخاني ما لا تعلمون . فهو الذي يستحق
الحمد والثناء ، لأنه الفاعل المختار في الحقيقة . وغيره لا يحمده إلا على المجاز .
وخلق الظلمات كلها ، كظلمة الليل وظلمة الكافر وظلمة الجهل والحيرة . ومع هذا
كله جعل المشركون له اندادا سووهم به في دعائهم والاستغاثة بهم والخوف منهم بالغيب
والاستعاذة بهم والتوكل عليهم في جلب الخير ودفع الشر والحلف بأسمائهم والتذرع
لهم وتقريب القرابين وإعطاء الصدقات لوجوههم والحج إلى الأوثان المنصوبة عليهم
والطواف بها والتمرغ باعتابها وأخذ التراب منها للاستشفاء والتبرك واتخاذها
أعيادا وإقامة المواسم عندها والاحتفالات واللجوء إليها عند الشدائد وبناء المساجد
عندها وكتابة الرسائل للاستغاثة والاستعانة والقائها في صناديق بربدها وتقديس
سدنتها إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي يتقربون بها إليها . قال الله تعالى واصفا
لخالقهم في الدار الآخرة (وبرزت الجحيم للقارين وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من
دون الله ، هل ينصرونكم أو ينتصرون فكذبوا فيها هم والفارون وجنود ابليس
أجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب
العالمين وما أضلنا الا المجرمون ، فما لنا من شافعين ولا صديق حميم)

ثم قال تعالى ، (هو الذى خلفكم من طين ثم قضى اجلا واجل مسمى عنده
ثم انتم تمترون (٢)

المفردات

قال الراغب ، القضاء ، فصل الامر قولا كان ذلك او فعلا . انتهى كلامه
أقول ، وهو هنا من الفعل ، الاجل المدة المحدودة . عنده ، أى لا يملئه غيره .
تمترون ، تشكرون .

المعنى العام

ضمير هو عائد على الله تعالى . خلقكم أى اباكم آدم من طين ، ثم قضى اجلا ،
أى ضربه وحدده ، وهو من ولادة الانسان إلى موته . واجل مسمى ، أى مضروب
ومحدد عنده لا يملئه غيره . وهو ما بين الموت وقيام الساعة ، ومع ذلك تمترون ،
أى تشكون فى البعث ، وذلك امر غريب لو استعملتم عقولكم لما شككتم فيه ، لأن
البعث احياء بعد الموت . والذى قدر على ايجاد الناس من العدم قادر على احيائهم ،
ولا فرق بينهما . قال الله تعالى ، (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو اهلون عليه)
وقال تعالى ، (افعينا بالخلق الاول ، بل هم فى لبس من خلق جديد) وقد تكرر
هذا المعنى فى الكتاب العزيز بالفاظ مختلفة تفتنا فى العبارة ودفعنا لشبهة الخصم
بالحجة البالغة والبراهين القاطعة ، وخاعله انكم تشاهدون النشأة الاولى بيقين لا شك
فيه فكيف تشكون فى النشأة الاخرى ؟ .

ثم قال تعالى ، (وهو الله فى السموات وفى الارض يعلم سركم وجهركم
ويعلم ما تكسبون (٣)

المعنى العام

قال الامام ابن كثير ، اختلف مفسرو هذه الآية على اقوال بعد اتفاهم على انكار قول الجهمية .

الاول : قول القائلين تعالى عن قولهم حلوا كبيرا بانه في كل مكان حيث حلوا الآية على ذلك . فالاصح من الاقوال انه المدعو في السموات وفي الارض ، أى يعبد ويوحده ويقر له بالالهية من في السموات ومن في الارض . ويسمونه الله ويدعونه رغبا ورهبا ، الا من كفر من الجن والانس . وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى (وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله) اى هو اله من فى السماء ومن فى الارض ، وعلى هذا فيكون قوله يعلم سركم وجهركم خبرا او حالا . والقول الثانى ان المراد انه الله الذى يعلم ما فى السموات وما فى الارض من سر وجهركم ، فيكون قوله ، يعلم متعلقا بقوله فى السموات وفى الارض . تقديره ، وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الارض ويعلم ما تكسبون . والقول الثالث ، ان قوله ، وهو الله فى السموات وقف تام ، نم استأنف الخبر فقال ، وفى الارض يعلم سركم وجهركم . وهذا لاختيار ابن جرير . وقوله ، ويعلم ما تكسبون ، اى جميع اعمالكم خيرا وشرها انتهى كلام ابن كثير . قوله بعد اتفاهم على انكار قول الجهمية القائلين فى كل مكان . الجهمية هم اتباع جهم بن صفوان ينكرون الصفات وكل من انكر شيئا مما اثبت الله لنفسه فى كتابه او وصفه به رسوله ﷺ فى سنته فهو جهمى ، وكذلك من اول شيئا من ذلك تأويلا محدثا لم يقل به اصحاب رسول الله فهو جهمى . والسلف الصالح ومن اتبعهم باحسان يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصف به رسوله الامين ﷺ غير تشبيهه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل . والقول الثالث الذى اختاره ابن جرير هو معنى قوله تعالى ، (الرحمن على

العرش استوى ، وقول النبي ﷺ في قصة بنى قريظة لاسعد بن معاذ ، لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات . قد أفرد الامام الذهبي هذه المسألة بكتاب ، سماه كتاب العلو للعلو للفجار ، جمع أدلتها بالتفصيل .

ثم قال تعالى ، (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤) فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم انباء ما كانوا به يستهزءون (٥))

يخبر سبحانه وتعالى عن الكافرين أنهم كما جاءتهم آية ، أى دلالة من المعجزات والبراهين على صدق الرسول أعرضوا عنها ولم يلتفتوا اليها وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وعنادا واستكبارا فترتب عن ذلك تكذيبهم بالحق ، وهو القرآن والرسول وما جاء به ، فسوف يأتيهم انباء عاجلا أو آجلا انباء ، أى اخبار ما كانوا يستهزءون به من الآيات والمراد بالانباء هنا ما أخبر الله به من العذاب المعد للكافرين في الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى ، (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنهم فى الأرض ما لم نمكن لهم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحته فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين (٦))

المفردات

القرن ، القوم المقترنون فى زمان واحد . الدر ، غزارة المطر مأخوذ من درت الناقة إذا كثرت لبنها .

المعنى العام

يخبر الله سبحانه وتعالى أنه أهلك كثيرا من الأمم بعد ما أعطاهم من قوة الأبدان وكثرة الأموال والأولاد والجاه والسلطان ما لم يعط أهل مكة وسائر

المكذبين لرسوله محمد ﷺ فمن جملة الارزاق التي أعطاهم كثرة الامطار في وقت الحاجة إليها . والسماء هنا بمعنى المطر من تسمية الحال باسم المحل . قال الشاعر

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا
وتفجير العيون والانهار وكثرة الحدائق والاشجار تحيط بالقصور الشاخنة ،
فصوا الله وخالفوا أمره وكذبوا رسله فأهلكهم الله بذنوبهم ، وخلق من بعدهم
قوما آخرين ليبتليهم كما ابتلى الاولين ، ومن كفر أباده ولا يظلم ربك عباده .

ثم قال تعالى ، (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فامسوه بأيديهم لقال الذين
كفروا ان هذا إلا سحر مبين (٧) وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو أنزلنا
ملكا لقضى الامر ثم لا ينظرون (٨) ولو جعلناه رجلا واللبسنا عليهم ما يلبسون (٩)
ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون (١٠)
قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١١)

المفردات

القرطاس ، ما يكتب فيه عادة . قال الراغب ، السحر ، يقال على معان ، الاول
الخداع وتخبيلات لا حقيقة لها ، نحو ما يفعله المشعوذ بصرف الابصار عما يفعله
لخفة يده . والثاني ، استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه . والثالث ،
ما يذهب إليه الاغنام ، وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطباع
فيجعل الانسان حمارا ، ولا حقيقة لذلك عند المحصلين . اهـ

المعنى العام

يقول الله سبحانه مخاطبا رسوله محمدا ، لو أنزلنا عليك كتابا مكتوبا في
صحائف يلمسونها بأيديهم لما آمنوا ولنسبوا ذلك إلى السحر الواضح . وقال الكافرون

فلا أنزل الله ملكا يشهد لهذا الرجل أنه مرسل من الله، فرد الله عليهم بقوله، ولو جعلناه، أى الرسول ملكا أو أنزلنا ملكا مع الرسول البشرى لجعلنا ذلك الملك على صورة رجل، لأن البشر لا يستطيعون أن يروا الملك على الصورة التي خلقه الله عليها، حتى أن الرسول ﷺ على علو منزلته لم يكن يستطيع أن يرى الملك على صورته الحقيقية، فكان جبريل يأتيه على صورة دحية الكلبي. وإذا جاءهم ملك على صورة رجل يهود اللبس ويحتاج هذا الرسول الملك إلى ملك آخر يشهد له فيقع تسلسل لا نهاية له. وإنما قالوا ذلك تعنتا، لأن دلائل صحة رسالة النبي كالشمس في رابعة النهار

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل
 قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم
 ثم قال تعالى مسلما رسوله، (ولقد استمضى برسول من قبلك) الآية. يخبر
 سبحانه أن سنته في خلقه جرت بأن كل رسول يرسل إلى أمة يعالج أمراضها
 ويشفيها باذن الله من أدوائها لتأهل للكرامة والسعادة؛ أقابل رسولها بالاستهزاء
 والسخرية، لأنها قد استطابت ذلك المرتع الوخيم وألفته فهي تعادى كل من يتصدى
 لها بخائب أهواها وينقلوها عن مألوفاتها، وكذلك سائر المصلحين من اتباع
 الرسل يلقون شيئا مما لقيه متبعوهم، وذلك من تمام ارتهم ألعومهم وأحوالهم.
 ثم نبههم سبحانه وتعالى إلى السير في الأرض ليروا بأعينهم ديار المجرمين الذين
 كذبوا الرسل من قبل ويمتنعوا بما حل بهم. ومثل هذا كثير في كتاب الله
 كقوله تعالى (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان
 يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار؛ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)
 ثم قال تعالى، (قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه

الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون (١٢)
ثم اخذ سبحانه وتعالى يقيم الحجة على المشركين من جديد فأمر نبيه ان يقول
لم ، من يملك ما فى السموات وما فى الارض ، ولما كان الجواب معلوما أمر نبيه
به فقال ، قل لله ، ثم رغب الجاحدين والفاةين فى رحمته فأخبرهم أنه كتبها
على نفسه . وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبي ﷺ قال ، لما
خلق الله الخلق كتب كتابا فهو عنده فوق العرش أن رحمتى تغلب غضبى . ثم
أقسم الله سبحانه أنه سيجمع عباده كلهم فى يوم القيامة ، وهو آت لا شك فيه .
وفى ذلك اليوم يخسر المبطلون الذين جحدوا آيات الله أو أهملوا النظر فيها وانبعوا
أهواءهم ولم يؤمنوا بالله .

ثم قال تعالى ، (وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم (١٣)
هذه حجة أخرى على المشركين ، يخبر سبحانه ، أن كل شىء ساكن فى الليل
والنهار وكل شىء متحرك ، فانه يملكه والذين يدعون من دونه لا يملكون مثقال
ذرة فى السموات ولا فى الأرض وهذا كقوله تعالى (سرايل تقيمكم الحر) ، أى
والبرد ، فكذلك له ما سكن وما تحرك . وهو السميع لأقوال عباده ، ومنها التوحيد
والشرك ، عليم بأفعالهم . ومنها ما هو خالص له ، ومنها ما هو عبادة لغيره ، وهو
مجازيهم على ذلك ان خيرا فخير وان شرا فشر .

ثم قال تعالى ، (قل أغير الله اتخذوايا فاطر السموات والأرض وهو يطعم
ولا يطعم قل انى أمرت أن أكون اول من أسلم ولا تكفرن من المشركين (١٤)
قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم (١٥) من يصرف عنه يومئذ فقد
رحمه وذلك الفرز المبين (١٦) وان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان
يمسك بخير فهو على كل شىء قدير (١٧) وهو القاهر فرق عباده وهو الحكيم

الخبير (١٨) قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ آمنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو اله واحد وإنى يرى بما تشركون (١٩)

الخطاب للنبي ﷺ عليه ربه سبحانه كيف يحاج المشركين فقال له ، قل لهم ، كيف اتخذ غير الله وليا استنصره وأستعين به وأسأله جلب الخير و دفع الشر وأفرع اليه فى الملمات وأذبح له وانذر وأهتف باسمه عند الشدائد ، وهذا معنى الولى وهو الذى خلق السموات والأرض وأبدعها على غير مثال سبق . وهو الذى يطعم كل حى ويرزقه ولا يحتاج الى طعام ولا رزق ولا مدد من سواه وانتم لجهلكم تخضعون للمخلوقين المرزوقين المحتاجين وتدعونهم وتستغيثون بهم ، وكل من له ادنى شىء من العقل يشتمز من هذا الصنيع وينكره . وصدق الله العظيم ، فالدجب كل الدجب من المشركين الذين يرون اولياءهم محتاجين الى طعامهم وابوائهم وحملهم على دوابهم او على سفنهم وغيرها من المراكب الدارجة على الارض والطائرة فى السماء ويحتاجون الى كسوتهم وتنظيف ثيابهم وأبدانهم وعلاجهم اذا مرضوا الى غير ذلك من الحاجات الكثيرة ، فيمدونهم بكل ذلك ، ثم يسألونهم ما لا يقدرون عليه كاطالة الحياة وهداية القلوب وشفاء الامراض والنصر على العدو وسعة الرزق واعطاء الاولاد والحفظ من المكروه . أو لم يعلموا المثل السائر ، أن فاقد الشىء لا يعطيه . وهؤلاء السفهاء يقضون حاجات اوليائهم الحقيقية المشاهدة المدوسة ، ويسألونهم اشياء وهمية وخيالية يمكن التدليس فيها والكذب ، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . روى ابن كثير فى تفسيره عن ابي هريرة قال ، دعا رجل من الانصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام فانطلقنا معه فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال ، الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم ومن

دلينا فهدانا واطعمنا وسقانا من الشراب، وكل بلاء حسن ابلانا، الحمد لله غير مودع ولا مكافئ ولا مكهور ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذى اطعمنا من الطعام وسقانا من الشراب وكسانا من العرى وهدانا من الضلال وبصرنا من العمى وفضلنا على كثير من خلق تفضيلا، الحمد لله رب العالمين.

شرح الفاظ هذا الحديث

قوله، وكل بلاء حسن ابلانا. ابل الله العبد وبلاءه، أى اختبره ليظهر شكره أو كفره للناس وليبتلى نفسه. ويكون البلاء كما قال الراغب، بالمنحة وبالمنحة فالعبد الصالح اذا منح شكر واذا أصابه عنة صبر، والعبد الطالح بخلاف ذلك. قوله غير مودع، أى غير متروك حمده وشكره. ولا مكافئ، أى لا يحتاج الى المكافاة كما يحتاج الانسان. ولا مكهور، لا تكفر نعمته. ولا مستغنى عنه، لا يستغنى عنه أحد من خلقه. ثم قال تعالى، قل يا محمد انى امرنى الله أن اكرن أول من أسلم من هذه الأمة، والاسلام هنا هو الاستسلام والانقياد لأمر الله تعالى. قال الله تعالى، ولا تكونن من المشركين. وهذا النهى موجه بقوة وشدة لنا معشر المخاطبين المأمورين بتوحيده، لأن النبي ﷺ معصوم من الشرك والمعصية. ثم قال تعالى من هذا القبيل، قل انى أخاف ان عصيت ربي بالشرك أو غيره عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة. من يصرف عنه ذلك العذاب فقد رحمه الله، وذلك الفوز المبين أى السعادة العظمى. ثم قال تعالى فى اقامة الحجّة على المشركين مخاطبا رسوله ﷺ وكل من يصلح للخطاب، وان يمسك الله، أى يصبك بضر فلا كاشف له الا هو، لا يستطيع أحد أن يكشفه عنك كائننا من كان. وان يمسك، أى يصبك بنخير فهو على كل شئ قدير وغيره عاجز عن كل شئ. وقد

خاب وخسر من يترك القدير ويدعو العاجز الفقير . قال تعالى ، وهو القاهر
 فوق عباده . القاهر الغالب الذي يفعل ما يشاء في ملكه ولا يخشى عاقبة فعله ،
 يحيى ويميت ويعطي ويمنع ويضع ويرفع ، والكل تحت قهره ، عنت له الوجوه
 وخشمت له الاصوات لا معقب لامره ولا راد لقضائه وهو العلي العظيم وهو
 الحكيم في قدره وشرعه وافعاله . ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ ، قل اي شيء
 اكبر شهادة ، اي شاهد اعظم شهادة ، ثم امره ان يقول ، الله شهيد بيني وبينكم
 وهو خير الشاهدين . وقد شهد لرسوله ﷺ فقال ، محمد رسول الله . وقال ، وانك
 لعلي خاق عظيم ، وقال ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم . وقال تعالى ، والله
 يشهد انك لرسوله . وارحى الى هذا القرآن ، انزله الله على لاحذرکم به من عذابه
 واحذر من بلغه الى يوم القيامة . انكم لتشهدون ان مع الله آلهة اخرى مخلوقين
 كالمثكة وعيسى واهمه وكل من عبد من الصالحين والطالحين والجن والانس ، قل
 لهم انا لا اشهد بذلك ، بل اقول ، انما هو اله واحد واتبرأ من كل ما تشركون ،
 وهكذا يجب على كل من اتبعه ان يقول ، قال الله تعالى (قد كانت لكم اسوة
 حسنة في ابراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم انا برآؤا منكم وما تعبدون من دون
 الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده) من
 سورة الممتحنة . وقال تعالى في سورة البقرة (من يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد
 استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ، الله ولي الذين آمنوا
 يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من
 النور الى الظلمات اوائك اصحاب النار هم فيها خالدون) فلا يصح الايمان بالله الا
 بعد الكفر بالطاغوت . وحينئذ تصح ولاية الله للعبد ويخرج من الظلمات الى
 النور . وقال تعالى في سورة الزخرف (واذ قال ابراهيم لآبيه وقومه اني براء بما

تعبدون الا الذى فطرنى فانه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون)
فالتبرؤ من عبادة غير الله شرط فى صحة الايمان . و الآيات فى هذا المعنى
كثيرة .

ثم قال تعالى ، (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين
خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون (٢٠) ومن اظلم من اقرى على الله كذبا او كذب
بآياته انه لا يفلح الظالمون (٢١) ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا
ابن شركائهم الذين كنتم تزعمون (٢٢) ثم لم تكن فتنتهم الا ان قالوا والله ربنا
ما كنا مشركين (٢٣) انظر كيف كذبوا على انفسهم و ضل عنهم ما كانوا
يفترون (٢٤)

المعنى العام

ثم اخبر الله سبحانه عن اليهود والنصارى انهم يعرفون محمدا أنه نبي ورسول
الى الناس كافة بما فى كتبهم من نعمته وصفته وبما عندهم من العلم الذى يميزون به الصادق
من الكاذب ، فكتم أكثرهم الشهادة ووجدوا بها واستيقنتها انفسهم عنادا واستكبارا
فخذلهم الله ونصر رسوله و المؤمنين ففسر اولئك الجاحدون فى الدنيا والاخرة
وأهلكوا انفسهم بحرمانها من ثمرات الايمان و ابقاها فى الشقاء و العذاب الدائم .
ثم قال تعالى : ومن اظلم ، اى جرما و اعظم ذنبا من هؤلاء المشركين والجاحدين .
فالشركون جعلوا لله اندادا شركاء يحبونهم كحبه او اكثر ، ويعبدونهم كعبادته او
اكثر ، وزعموا أنهم ينصرونهم ويشفعون لهم عند الله ، قال تعالى فى سورة مريم
(واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا (٨١) كلا سيكفرون بعبادتهم
ويكونون عليهم ضدا (٨٢) وقال تعالى فى سورة يس (واتخذوا من دون الله
آلهة لعلهم ينصرون (٧٤) لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون (٧٥)

وقال تعالى في سورة فاطر (بواج الليل في النهار وبواج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذالكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (١٣) ان تدعوهم لا يسمعوا دعواكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبتك مثل خبير (١٤). وقد تكرر هذا المعنى في كتاب الله في مواضع تفوق الحصر. والمعجب عن يقرأ كتاب الله ويصر على الشرك مع هذا البيان والحجة البالغة والبراهين القاطمة، ومن يضل الله فإله من هاد. ثم قال تعالى: أو كذب بآياته، أي رد الدلالات والحجج، أنه لا يفلح الظالمون، أي لا يفوزون ولا ينجحون، بل يخسرون في الدنيا والآخرة، لأنهم كذبوا على الله باتخاذهم الأولياء من دونه، وكذبوا رسله وكتبه فهم الكاذبون المكذبون. ثم أخبر الله سبحانه أنه سيحشر الناس كلهم ويجمعهم في يوم القيامة ثم يخاطب المشركين بقوله: ابن الشركاء والأولياء الذين اتخذتموه من دوني وزعمتم أنهم ينفعونكم في الدنيا والآخرة، فيسقط في أيديهم ولا يجدون جوابا عن هذه الفتنة وهذا الامتحان إلا الكذب في الآخرة كما كذبوا في الدنيا فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين. قال الله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ بالأصالة وكل من يصلح للخطاب بالنبوية انظر بعينك كيف كذبوا على أنفسهم في الدنيا باتخاذهم الأولياء وفي الآخرة بالجحود، ولكن هذا الجحود لا ينفعهم يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين.

ثم قال تعالى: (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤك بمجادلونك يتول الذين كفروا ان هذا الا اساطير الاولين (٢٥)

المعنى العام

أخبر الله سبحانه ، أن بعض المشركين يستمعون الى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ، ولكن لا يفهمونه فهم قبول ينتفعون به ، لأن الله طبع على قلوبهم بسبب عنادهم وجحودهم فصارت قلوبهم عابيا أغشية تمنعها من قبول الحق والاهتداء به كما قال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وانه لا يهدي القوم الفاسقين) وقال تعالى (وانقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) وجعل الله في آذانهم صمما فلا تسمع القرآن سماع قبول وهداية ، بل سماع تكذيب وجحود . ولذلك الطبع على القلوب والصمم في الآذان لا تؤثر فيهم الآيات ، ولا تفهم الحجج والدلالات ، فلا يؤمنون بشئ منها وكلما جاءتهم آية وقرعتم حجة قالوا في ردها : هذه أساطير الاولين أخذها محمد من كتب الامم السابقة . هذا وهم يعلون أنه امي لا يقرأ ولا يكتب ولم يخاط تلك الامم ولا سمع منها شيئا ، وانما هم يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق فلم يفلاحوا .

ثم قال تعالى ، (وهم ينهون عنه وينثون عنه وان يهلكون الا انفسهم وما يشعرون (٢٦) .

قال تعالى : وهم اى اعداء الاسلام ينهون الناس عن الايمان بالقرآن والرسول ، ويتباعدون عنه ظنا منهم أنهم بذلك يستطيعون أن يظفروا نور الله ويمنعوا الناس من الاهتداء به ليتوصلوا بذلك الى القضاء على الدعوة المحمدية ، وما يهلكون بذلك الا انفسهم بتعريضها لعذاب الدنيا والاخرة وما يشعرون بذلك وقيل في تفسير الآية انها في اقارب النبي ﷺ كانوا ينهون الناس عن محاربة النبي ويتباعدون عن الايمان به ، والاول اولى .

ثم قال تعالى ، (ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب

بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (٢٧) بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو
ردوا لعادوا لما نورا عنه وانهم لكاذبون (٢٨) وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا
وما نحن بمبعوثين (٢٩).

المعنى العام

الخطاب هنا للنبي ﷺ أو لكل من يصلح الخطاب، ولو ترى هؤلاء
الكافرين حين يوقفون على النار ويرون العذاب باعينهم فيندمون على ما فعلوه في
الدنيا ويقولون يا ليتنا نرد اليها فتؤمن بالله ولا تكذب بآياته. ثم اخبر الله سبحانه
وتعالى، انهم لو ردوا الى الدنيا لعادوا الى كفرهم، وانهم كاذبون في قولهم. والسبب
في ذلك ان نفوسهم خبيثة تغتر بالتعجل وتركن اليه ولا تفكر في العواقب. ولذلك
قالوا، ان هي الا حياتنا الحاضرة وانكروا البعث والحياة الاخرى لعمى بصائرهم.
وقد حاجهم القرآن في مواضع كثيرة، فحاجهم وابطل شبهاتهم. وحاصل ذلك ان
الانسان كسائر المخلوقات ليس أزليا، بل هو مسبوق بالعدم. وهذه المقدمة مسلطة
عند كل عالم وعاقل، وقد صارت في هذا الزمان كالامور المدركة بالحس، وحينئذ
لا يبقى مجال لجحد المقدمة الثانية، وهي ان من خلقهم أولا قادر على ان يخلقهم
ثانيا (اوليس الذي خلق السموات والارض بقادو على ان يخلق مثلهم بلى وهو
الخالق العظيم، انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون، فسبحان الذي بيده
ملكوت كل شيء واليه ترجعون) آخر سورة يس. وقال تعالى (كما بدأنا اول
خلق نعبده وحدا علينا انا كنا فاعلين) من سورة الانبياء، وقال تعالى، (وهو الذي
يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) من سورة الروم، وقال تعالى، (أفمينا
بالخلق الاول، بل هم في لبس من خلق جديد) من سورة ق، والآيات في
ذلك كثيرة.

ثم قال تعالى: (ولو ترى اذ وقفوا على ربهم ، قال أليس هذا بالحق ، قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٠)

ولو ترى أيها المخاطب الكافرين المكذبين حين يوقفون بين يدي الله ، فيقول لهم بلا ترجمان ، أليس هذا البعث الذي كفرتم به في الدنيا حقا واقعا ، فيجيئون ، وهم في غاية الحسرة ، بلى والله ، فيقول الله لهم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون بإنكاركم المعاد .

ثم قال تعالى: (قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بفتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم الا ساء ما يوزون (٣١)

يقول سبحانه وتعالى: (قد خسر الذين كذبوا بقاء الله) في تجارتهم ، وهي استبدالهم الايمان بالكفر وإنكار البعث والجزاء ، وستبين لهم هذه الحسارة حين تجيئهم الساعة ، أي القيامة بفتة أي فجأة ، وحينئذ يقولون يا حسرتنا على ما فرطنا في الدنيا وندمون حين لا ينفعهم الندم ، وهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم لا يستطيعون سترها في الآخرة ، وان استطاعوا ذلك في الدنيا ، لأن الله يفضحهم على رؤس الاشهاد ، كما يفتضح من حمل شيئا مسروقا على ظهره . وبس الحمل ذلك . ولو فكر أهل المعاصي وأهل الظلم والغضب أنهم سيحملون جرائمهم في ذلك اليوم العظيم أمام الناس ما ارتكبوا تلك الجرائم .

ثم قال تعالى: (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (٣٢)

يخبر سبحانه أن هذه الحياة الأولى التي تحيها إذا لم تعتبر ما فيها من رب
الايمان بالله والعمل الصالح الموجب لمرضاته ليست إلا لعبا ولهوا لا خير فيها

ولا لفع ، كما أن اللعب بجميع أنواعه لا يثمر شيئا . وكذلك اللهو ، كاستماع
 الغناء مثلا لا ثمرة له . فمن لم يقسم وقته على الأعمال المطلوبة منه شرما
 كالمبادات والقيام بسائر الواجبات التي بينت في حديث سلمان وأبي الدرداء حين
 قال سلمان له : إن لربك عليك حقا ، وإن لنفسك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك
 حقا ، وإن لضيفك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه . والحديث في صحيح
 البخارى . فاللعب واللهو إذا كانا مباحين من حق النفس ، وتمرتما الترويج عنها
 واستجابهما لتقوى على الأعمال الجدية . أما اللهو واللعب المفضيان إلى إضاعة
 الحقوق الأخرى فهما المعنيان بالنبيه في هذه الآية وبيان ذلك أن من اغتر بهذه
 الحياة الدنيا وآثرها وأهمل ما أوجب الله عليه من الأعمال الصالحة يكون كمن
 ترك أداء واجبه الذي بأجره يعيش واشتغل بدلا من ذلك باللعب واللهو ، فإن
 خسارته وندامته حين يرى الناس يقبضون أجور أعمالهم لاحد لهما ولا يدخلان
 تحت الوصف . يزيد ذلك وضوحا قول النبي ﷺ : الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا
 ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما .

وحينما جاء ذم الحياة في كتاب الله وسنة رسوله ؛ ينبى ان يفسر بمثل
 ما تقدم . وقد راجعت ما بيدى من التفاسير فلم أجد أحدا منهم أوضح هذا المعنى .
 ففسرت الآية بما فتح الله به رقة الحمد والمنة . وقوله سبحانه : (وللدار الآخرة خير
 للذين يتقون) أى لعبها الدائم ورضوان الله على أهلها خير من متاع الدنيا
 الفانى المنص للذين يتقون الله ويتبعون رضوانه ، إذ هم وحدهم الذين يفوزون
 بذلك : وقوله : (أفلا تعقلون) معناه أن من آثر الحياة الدنيا التي هى لعب وهو
 متجنب بسبيل العقلا . سالك سبيل السفهاء .

ثم قال تعالى : (قد نعلم أنه يحزنك الذى تقولون ، فانهم لا يكذبونك ،

ولكن الظالمين بآيات الله يمحذون (٣٣) ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين (٣٤) وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين (٣٥) إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يعثمهم الله ثم إليه يرجعون (٣٦) .

قوله تعالى : (قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون) الآية . في هذا الكلام تسلية من الله لنبية وتصدق له وتوييح لأعداء الاسلام . ومثله ، قوله تعالى في أول سورة الكهف : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) (٦) وقوله في سورة فاطر : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون (٨) وقوله تعالى في أول سورة الشعراء : (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين (٣) إن نشأ نزل عليهم آية من السماء فظلت أعناقهم لها خاضعين (٤) وإنما كان النبي ﷺ يحزن لتكذيب المكذبين حرصاً منه على هداية الناس ومعادتهم وإشفاقاً منه عليهم ، فأخبره الله أن أولئك المكذبين ، إنما يكذبونه بالاستهم ، وهم يفتقدون صدقه في قرارة نفوسهم جحوداً منهم للحق واستكباراً أن يدعوا له ويقروا به . وقد وردت آثار في بيان معنى هذه الآية ، منها ما رواه ابن أبي حاتم بسنده إلى أبي يزيد المدني ، أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه ، فقال له رجل : لا أراك تصافح هذا الصابي ، فقال : والله إني لأعلم أنه لئبي ، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً ، وتلا أبو يزيد : (فأنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يمحذون) . وذكر محمد بن اسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل حين

جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب والآنس
ابن شريق، ولا يشعر أحد منهم بالآخر، فاستمعوها إلى الصباح، فلما هجم
الصبح تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال كل منهم الآخر ما جاء بك، فذكر له ما جاء
به، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شبان قريش لئلا يفوتوا
بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظنا أن صاحبه لا يجيآن لما سبق من
العهد، فلما أصبحوا جمعهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا، فلما
كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضا، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها، ثم تفرقوا،
فلما أصبح الآنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في
بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعته من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة،
والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها
ولا ما يراد بها. قال الآنس: وأنا والذي حلفت به، ثم خرج من عنده. حتى
أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد،
قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف فأطعموا فاطمنا وحملوا
فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجائنا على الركب وكنا كفرسى رهان، قالوا
ما نبي يأنبه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه، والله لا تؤمن به أبدا
ولا لصدقه. قال فقام عنه الآنس فركه. وآيات الله الدالة على صدق محمد ﷺ
كثيرة، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون. قوله تعالى: (ولقد كذبت
رسل من قبلك) الآية. استمرار في تسلية النبي ﷺ وتصبيره وتطيب قلبه، أخبره
الله أن هذه سنته مع جميع رسله لا تبديل لها، فما من رسول أرسله الله إلى
قومه إلا قابله بالتكذيب والعداوة وقابلهم بالصبر والثبات، فكانت العاقبة لرسل
الله ومن تبعهم لصر الله وتمت عليهم كلمته بما صبروا ودمر الله

أعداءهم . وهذا كما قال تعالى في سورة الصافات ، من ٧١/٧٣ : (ولقد سبقت كتبنا لعبادنا المرسلين ، أنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون) وقال تعالى في سورة المجادلة : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز (٢١)) وقال تعالى في سورة المؤمن : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) (٥١) وقال تعالى في سورة الاحصاف : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون (٣٥)) فهذه الآيات كلها متشابهة ، فيها الأمر بالصبر للرسل وأتباعهم والوعد بالنصر وإن الله لا يخلف وعده . ولا مبدل لكلماته التي وعد بها أوليائه بالنصر والتأييد .

ولوله تعالى : (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) خطاب من الله تعالى لرسوله ، يقول : ولقد جاءك من أخبار المرسلين السابقين من صبرهم على أذى قومهم ونصر الله لهم ما يثبت قوادك ويذهب عنك الحزن . وقوله سبحانه : (وإن كان كبير عليك إعراضهم) الآية . رأيت أن القل هنا تفسير الخازن لهذه الآية بالفاظه ، لأنها تتضمن خطابا للنبي ﷺ فختمت أن يكون في تفسيرى لها بالفاظى ما يقصر عن الأدب اللائق بذلك المقام ، قال الخازن : ذكر ابن الجوزى في سبب نزول هذه الآية أن الحارث بن عامر أتى رسول الله ﷺ في نفر من قريش فقال : اتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات ، فان فعلت آمنا بك ، فنزلت هذه الآية . رواه أبو صالح عن ابن عباس . ومعنى الآية ، وإن كان عظيم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين عنك وعن تصديقك والإيمان بك . وكان رسول الله ﷺ يحرص على إيمان قومه أشد الحرص ، وكان إذا سأله آية أحب أن يريهم الله ذلك طمعا في إيمانهم . فقال الله عز وجل : (فإرس استنطعت أن تبغنى) يعنى

تطلب وتتخذ (تفقا في الأرض) يعني سر بها في الأرض . والنفق سرب في الأرض
تخلص منه الى مكان آخر (أو سلبا في السماء) يعني أو تتخذ الى السماء . والسلم
المصعد وهو مشتق من السلامة . (فتأتيهم بآية) يعني بالآية التي سألوها عنها . ومعنى
الآية ، وإن كان كبير ودظم عليك إعراض قوهك عن الإيمان بك ، فإن قدرت
أن تذهب في الأرض أو تصعد إلى السماء فتأتيهم بآية تدلهم على صدقك ، فافعل .
وإنما حسن حذف جواب الشرط ، لأنه معلوم عند السامع . والمقصود من هذا
أن يقطع رسول الله ﷺ طمعه عن إيمانهم ولا يتأذى بسبب إعراضهم عنه وعن
الإيمان به . ويدل عليه قوله تعالى : (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أخبر الله
عز وجل نبيه ﷺ أنهم إنما تركوا الإيمان وأعرضوا عنه وأقبلوا على الكفر
بمشيئة الله تعالى وناقذا قضائه فيهم . وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى (فلا تكون من
الجاهلين) يعني بأن لو شاء الله لجمعهم على الهدى . وأنه يؤمن بك بعضهم دون
بعض ، وقيل : معناه لا يشتد بحسبك على تكذيبهم إياك . ولا تجزع من إعراضهم
عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم . وإنما نهاه عن هذه الحالة وغلظ
له الخطاب تبجيلا له عن هذه الحالة .

وقوله تعالى : (إنما يستجيب الذين يسمعون) الآية . إخبار منه سبحانه أن من
ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة بسبب عناده واستكباره فقد
حقت عليه كلمة العذاب ، فإن يسمع سماع قبول وإن يستجيب لله والرسول أبدا فلا
مطمع في هدايته . وقوله تعالى : (والموتى) أي الكفار الذين ماتت قلوبهم سيستمرون
على كفرهم حتى يبعثهم الله ويرجموا اليه فيوفيم دينهم ويعاقبهم على كفرهم .

ثم قال تعالى : (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ، قل إن الله قادر على أن
ينزل آية ، ولكن أكثرهم لا يعلمون) (٣٧) وما من دابة في الأرض ولا طائر

يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرغنا في الكتاب من شيء، ثم إلى ربهم
 يحشرون (٣٨) والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن
 يشأ يجعله على صراط مستقيم (٣٩) .

قوله سبحانه: (وقالوا لولا نزل عليه آية) الآية. قائل ذلك هم الكفار،
 ومرادهم بالآية، المعجزة الخارقة للعادة، كإنزال ملك يكلمهم ويشاهدونه، أو إحياء ميت
 يقترحون إحياءه، أو تفجير أرض الصحراء عبونا، أو بناء بيت من ذهب كما قال تعالى
 في سورة الأسراء: (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا (٩٠)
 أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا (٩١) أو تسقط السماء
 كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا (٩٢) أو يكون لك بيت من
 زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه، قل
 سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا (٩٣) واقترح هذه المعجزات من أولئك
 الطغاة وجمل إيمانهم متوقفا على إيجادها أمر بلغ الغاية في التعتت والتمرد والوقاحة
 والمكابرة، لأن تلك المعجزات إذا أوجد الله بعضها، فضلا عن كلها لم تبق فائدة
 للإيمان وحينئذ ينزل بهم عذاب الله الذي يحذرهم رسول الله من وقوعه. قال
 تعالى: (قل لهم إن الله قادر على أن ينزل آية) وفق ما تطلبون، ولكن لو علمتم
 أن إنزال العذاب سيقترن بإنزالها ما طلبتموها. قوله تعالى: (وما من دابة في
 الأرض) الآية. أخبر سبحانه أن أصناف الحيوانات مما يدب على وجه الأرض
 ومما يطير في الجو ومما يسبح في البحار والأنهار، هي طوائف وجماعات مماثلة
 للإنسان في أمور: منها أنها خاضعة لأمر الله ومطبعة له تسبحة وتحمده كما قال
 تعالى في سورة الأسراء، ٤٤: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون
 تسبيحهم) ومنها أنها اجناس تعرف باسمائها وصفاتها كاجناس بني آدم. ومنها

أنها مخلوقة لله ، هو الذى خلقها وهو الذى يرزقها وهو الذى يدبر شئونها .
ومنها أنها يألف بعضها بعضا ويفهم بعضها عن بعض ، فكثير من أجناسها تعيش مجتمعة
متعاونة ، لها نظام دقيق يعجز عنه كثير من البشر ، كجماعات النحل وجماعات النمل
وأسراب الطير ، وغير ذلك . ومن قرأ كتب علم الحيوان ورأى ما جعل الله فى أصنافه
من الفرائز والخواص العجيبة يزداد إيمانه بالله ويشاهد آياته وبديع صنعه فى مخلوقاته ،
ولا يسهه البتة أن يحمده تدبيره وتصرفه فى خلقه تصرف العليم الحكيم . ومنها ،
أن أجناس الحيوانات تطلب رزقها وتكدح فى طلبه كما يفعل الإنسان . ومنها
ازدواج ذكورها باناثها متعاونات على تربية أولادها برأفة وحنان وعطف . وإيثار
ومنها المماثلة فى انقائه المهالك والدفاع عن النفس والبعد عن أسباب الهلكة .

وقوله : (سبحانه ما فرطنا فى الكتاب من شيء) يعنى أن علم تلك الأجناس
وحركاتها وسكناتها وأرزاقها قد أحاط الله بعلمها كما قال تعالى فى سورة يود :
(وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى
كتاب مبين (٦) وقوله تعالى : (ثم إلى ربهم يحشرون) . فسر السلف على وجهين :
أحدهما : ما جاء عن ابن عباس ، أن حشرها هو موتها . والثانى : أن الله يحشرها
يوم يحشر الناس حتى يقنص للجلاء من القرناء . روى أحمد بسنده إلى أبى ذر
أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تتطحان ، فقال : يا أبا ذر ، هل تدرى فىم
تتطحان ؟ قال : لا ، قال : لكن الله يدرى ، وسيقضى بينهما وروى مسلم عن
أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى
يقاد للشاة الجلاء من الشاة القرناء . ثم نال تعالى : (والذين كذبوا بآياتنا صم
وبكم فى الظلمات) . شبه الله سبحانه المكذبين بحججه وكتبه التى بعث بها رسله
بالصم الذين لا يسمعون ، لأنهم تصاموا عن سماع الحق سماع قبول ، أو سماع

الصاف وتأمل ، والبكم الذين لا ينطقون ، لأنهم امتنعوا عن النطق بالحق والافرار به مع وضوحه وقيام الحجة عليهم . وقوله في الظلمات ، أى ظلمات كفرهم باتباعهم أهواءهم ، والهوى يعنى ويصم . وهذا كقوله تعالى : فى سورة هود (مثل الفريقين كالاهمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا افلا تذكرون (٢٤) والفريقان هما الكفار والمؤمنون . فالكفار كالأعمى والاصم ، والمؤمنون كالسميع والبصير ، ولن يستويا أبدا . ثم قال تعالى : من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم . يعنى ان من تجرد عن الهوى وأحب الهدى هداه الله وجعله على طريق مستقيم ، وهو طريق الذبب العلم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن اتبع هواه وزاغ عن أمر ربه أضله الله بالاهمال والاستدراج حتى يفاجئه العذاب .

ثم قال تعالى : (قل أرايتكم ان أناكم عذاب الله أو أنتم الساعة بفتنة غير الله تدعون ان كنتم صادقين (٤٠) : بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون (٤١) : ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالأسماء والضراء لعاهم يتضرعون (٤٢) : فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيين لهم الشيطان ما كانوا يعملون (٤٣) : فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بفتنة فاذا هم مبلسون (٤٤) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (٤٥) .

المعنى العام

قوله تعالى : (قل أرايتكم ان أناكم عذاب الله ، الآية) . معناه ، قل يا محمد للكفار المكذبين بآيات الله ، أخبروني ان أناكم عذاب الله معجلا فى هذه الدنيا ،

أو أنتم الساعة ، أى ساعة القيامة ، من الذى تدهونه وأسفثون به لكشف ما نزل
 بكم ؟ أندعون شركاءكم الذين عبدتموهم مع الله ليصرفوا عذاب الله عنكم ، أم تدعون
 الله وحده وتهملون شركاءكم إهمال المنسى ؟ بل الواقع انكم فى تلك الحال لا تدعون
 غير الله أبداً ، بل تفرّدونه بالدعاء فيكشف ما شاء من ضرركم وتهملون معبوداتكم .
 حتى اذا ذهب الضر وزالت الشدة عدتم الى الشرك بالله وعبدتم غيره . وهذا
 كما قال تعالى فى سورة الاصره : (واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون
 إلا اياه فلما نجاكم الى البر اعرضتم وكان الانسان كفورا (٦٧) . وقد تكرر
 هذا المعنى فى الكتاب العزيز فى مواضع كثيرة . فإمنا ان المشركين الذين كانوا
 فى زمن النبي ﷺ كانوا يوحدون الله فى الشدة ويشركون به فى الرخاء . أما مشركو
 هذا الزمان فانهم يدعون أوليائهم فى الشدة والرخاء ولا يوحدون الله فى أى وقت
 من الأوقات ، بل كثيراً ما يوحدون أوليائهم ويخاطبونهم بقولهم ، مالنا مغيب
 ولا ناصر ولا منقذ غيركم فاعطفوا علينا وانقذونا قتين بذلك ان المشركين
 والكفرة فى هذا الزمان أشد كفرا وأعظم اشراكا من المشركين الذين كانوا فى زمن
 النبي ﷺ فنعوذ بالله من الخذلان . ثم قال تعالى : (ولقد أرسلنا إلى أمم من
 قبلك) الآية . أخبر الله سبحانه رسوله محمداً تسلياً له وتثبيتاً أنه أرسل رسلاً
 الى أمم من قبله فى القرون الخالية ، وأنه أخذهم بالبأساء ، أى شدة الفقر والضره
 أى الأمراض ليرجموا إلى الله بالخضوع والدعاء ، فلم يخضعوا لله ولم يدعوه ويبتلوا
 إلهه ليكشف ما نزل بهم ، بل غلظت قلوبهم وتمجرت فلم تلت وحسنت لهم شياطينهم
 أعمالهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب وأراد الله أهلآكهم حين اعرضوا عن ذكر الله
 وأسرفوا فى معصيته وتعدوا حدوده واستهانوا بأمره ، حينئذ فتح الله عليهم أبواب
 كل شئ مما يشتهونه من الصحة والأموال والأرزاق والأولاد اذا تكامل فرحهم

وتم ابتهاجهم وامنعوا في الغرور اخذهم الله بغتة واهلكهم فجأة، فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. وهذا كما قال تعالى: (من استدرجهم من حيث لا يعلمون وأمل لهم ان كيدى منين). فعوذ بالله من مكره وسخطه وعذابه. وقوله تعالى: (فاذا هم مبلسون)، أى آسئون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا، أى امتؤصلوا وهلك آخرهم. والحمد لله رب العالمين على نصر أهل الحق وكسر أهل الباطل.

ذكر ما ورد من الاخبار في تفسير هذه الآية

روى ابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في تفسير هذه الآية: بفت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوما قط الا في سكرتهم وعرثهم ونعمتهم، فلا تغفروا بالله، فإنه لا يغفر بالله الا القوم الفاسقون). وقال مالك عن الزهري: فتحننا عليهم أبواب كل شيء، قال رخاء الدنيا. وروى أحمد بسنده الى عقبه بن عامر عن النبي ﷺ قال: اذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يجب، فأنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ، فلما أسوا ما ذكروا به فتحننا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون. وروى ابن أبي حاتم بسنده الى عبادة بن الصامت، ان رسول الله ﷺ كان يقول: اذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون. ورواه أحمد أيضا.

ثم قال تعالى: (قل أرايتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من الله غير الله يأتيكم به الظن كيف لصف الآيات ثم هم يصدفون (٤٦)، قل أرايتم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون (٤٧) وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٤٨) والذين كذبوا بآياتنا يسهم العذاب بما كانوا يفسقون (٤٩)

ثم قال تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين اخبروني ان اخذ الله سمعكم
فصرتم صمًا وابصاركم فصرتم عميًا، وختم على قلوبكم، اى طبع عليها حتى لا تفقه
شيئا، وهذه النعم الثلاث هى افضل ما اعطيه الانسان، وبها يدبر امر معيشته،
وبدونها يخزل أمره ويبطل عمله، هل يستطيع احد من شركائكم كنف ما كانوا
ان يرد عليكم هذه النعم التى سلبكم الله؟ الجواب معلوم، لا يستطيع احد من
المعبودين من دون الله، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا صالح ولا غيرهم ان
يرد تلك النعم، وانما يقدر على ردها من النعم بها ابتداء. ثم خاطب الله سبحانه
نيه ومن يصلح للخطاب بعده بقوله، انظر كيف نصرف الآيات، اى نبين
العلامات ونوضح الدلالات، ثم هم مع ذلك يصدفون اى يمرضون عنها اتباعا
لاهوائهم والقيادا الى شياطينهم. ثم قال تعالى: قل يا محمد، ارايتكم اخبروني ان
جاءكم عذاب الله مفاجئا وانتم لا تشعرون، او عيانا تشهدون رجيته هل يهلك
الا القوم الظالمون، اى المشركون وينجو الموحدون كما قال تعالى فى هذه السورة
نفسها (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون (٨٢)
ثم اخبر سبحانه وتعالى انه لا يرسل الرسل الى خلقه ليقترح عليهم المشركون
ما شاءوا من المعجزات نعمنا فيظهورها لهم، لان سنة الله لم تهر بذلك. وانما
ارسلهم ليبشروا المؤمنين المتقين بسعادة الدنيا والاخرة، وينذروا الكافرين بشقاء
الدنيا والاخرة. فكل من آمن بما جاءت به الرسل كلهم ولم يرد منه شيئا واصلح،
اى كان عمله مطابقا لايمانه، فلا خوف عليهم فيما يستقبلون من زمانهم فى هذه
الحياة وفى دار البقاء، ولا هم يمتزنون على ما فاتهم او خلفوه وراهم فى الزمان
الماضى. ثم قال تعالى والذين كذبوا بآياتنا، جحدوها وردوها يسبهم العذاب فى
الدنيا والاخرة بسبب فسقهم، اى خروجهم عن طاعة الله وطاعة رسوله.

ثم قال تعالى: قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول
لكم أني ملك الله أتبع إلا ما يوحى الي قل هل يستوى الأعمى والبصير
أفلا تتفكرون (٥٠)

المعنى العام

ثم قال تعالى: قل يا محمد لا أشركين وسائر المكذبين المنتعنين لا ادعى أني
أملك خزائن الله أو أنصرف فيها ولا ادعى أني أعلم الغيب، وإنما أعلم منه
ما أطلعني عليه ربي، ولا ادعى أني ملك استغنى عما يحتاج اليه البشر من طعام
وشراب وغيرهما، إنما أنا بشر مثلكم، لا أختلف عنكم في البشرية ومقتضياتها،
ولكن الله أنعم علي بالنبوة والرسالة، فلا أتبع إلا وحيه، ولا أطيع إلا أمره.
ثم قال تعالى: قل يا محمد لهم، هل يستوى الأعمى والبصير؟ الجواب معلوم،
لا يستويان أبدا. فاعشى البصر لا يبصر طريقه ولا ما حوله، وأعمى البصيرة شر
منه، لا يبصر طريق الحق مع وضوحه، لأن هواه قد أعمى عين بصيرته. وأما
البصير فإنه يبصر طريق الحق، لأن الله شرح صدره فهو على نور من ربه.
أفلا تتفكرون في هذا الكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
لا جرم لو تفكرتم فيه لأدركنتم الحق واتبعتموه. وهذا كما قال تعالى: في
سورة الرعد أفمن يعلم إنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر
أولوا الألباب (١٩)

ثم قال: وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الي ربهم ليس لهم من دونه
ولي ولا شفيع لهم يتقون (٥١)

المعنى العام

ثم قال تعالى: وأنذر، أي حذر يا محمد بالقرآن المؤمنين بالبعث، لأن
الإنذار يفهم أكثر من غيرهم، الذين يخافون أن يحشروا الي ربهم فيحاسبهم

ويمد لهم وما لهم من ولي يتولاهم بالحماية ولا نصير ولا شفيع لهم عند الله . وقد اطلق الله نبي الشفاعة ، مع أن الكلام هنا في شأن المؤمنين ، وقيدته في مواضع أخرى من الكتاب العزيز ، كقوله تعالى في سورة البقرة من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه (٢٥٥) : وفي سورة الانبياء ولا يشفعون الا لمن ارتضى (٢٨) : وفي سورة سباء ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له (٢٣) : وفي سورة النجم ولم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى (٢٦) : فالشفاعة عند أهل الحق مقيدة بقيدتين ، أحدهما اذن الله للشافع ، والثاني رضاه عقيدة المشفوع له ، وهي التوحيد وسائر ما يجب اعتقاده .

وقد تقرر في الشرع والعرف العام حمل المطلق على المقيد ، فلا تعارض بين آيات القرآن ، ولا بين القرآن والحديث الصحيح الذي يثبت الشفاعة . فالنفي هو الشفاعة المطلقة ، كشفاعة أعر الناس عند الملك أو الرئيس ، كابي الملك وأخيه وابنه وزوجته وصديقه وكبير وزرائه ، فإن هؤلاء ، يجوز أن يشفعوا عنده بدون استئذان لما لهم من المنزلة عنده . ومن ذلك تعلم بطلان ما يحتج به الجهال من تشبيه الله عز وجل بملك في اتخاذ الوسائط لفضاء الحاجات عنده . ولو تأملوا قليلا لعلموا ان هناك فروقا كثيرة بين الملك الحقيقي الذي لا ابتداء لملكه ولا انتهاء . والملك المخلوق العاجز الفقير الذي يلبس ثوب الملك بعد ان ينزع من غيره على سبيل العارية لمدة محدودة ، ثم ينزعه . فمن أظهر الفروق ، ان الملك العبد تخفى عليه حاجات الناس ولا يعرف مظلومهم من ظالمهم ولا المستحق منهم للاعانة من غير المستحق . والله تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوال عباده ، انه يعلم الجهر وما يخفى . ومنها ان الملك العبد قد يعلم حاجات المحتاج وظلم المظلوم ، ولكن قد يكون قلبه قاسيا فيحتاج الى من يعظه حتى يلين قلبه ، والله سبحانه أرحم الراحمين .

ومنها ان الملك العبد يجوز عليه ان يعتمد ظلم الرعية ، فيحتاج الى من يذكره ويخبره من عاقبة الظلم . ومنها ان الملك العبد قد يكون عالما بحاجة المحتاج وظالم المظلوم وحق المستحق فيتعهد منه حتى ياتي احد الشفعاء الدين لا يستطيع ان يرد شفاعتهم ، لانه يحبهم ، واذا غضبوا عليه يتألم لغضبهم فيقضى الحاجة وهو كاره . ومنها ان بعض رؤساء الاجناد ورؤساء الدولة اذا شفع عنده لا يستطيع ان يرد شفاعته اتقاء لغضبه الذي قد يفضى به الى الانحراف ثم الى شق دها الطاعة ، فيكون قضاء الحاجة التي شفع فيها من باب المداراة ، والله سبحانه منزه عن ذلك كله . وقوله سبحانه : لعلمم يتقون ترجمة من الله تعالى لانفعاهم بالانذار وتقواهم لله ، كما قال تعالى : في سورة الذاريات وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (٥٥)

ثم قال تعالى : ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء قط ردهم فتكون من الظالمين (٥٢)

المعنى العام

سبب نزول الآية

روى مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص قال ، كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال وكنت انا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان است اسميهما ، فرقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله ان يقع فحدث نفسه ، فانزل الله عز وجل ، ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . قوله تعالى :

ولا تطرد إلخ، الخطاب للنبي ﷺ نواه الله عن طرد الضعفاء لتأليف الرؤساء لما هم بذلك، ووصفهم الله ثنيا عليهم بأنهم يدعون في الصباح وفي العشي يريدون وجهه بدعائهم مخلصين همهم لله بلا رياء ولا سمعة ولا غرض من حظوظ النفس. ومعنى الدعاء هنا الصلوات الخمس كلها، لأن بعضها يكون في الصباح وبعضها يكون في المساء. وقد يراد بالدعاء العبادات كلها كما قال تعالى: في سورة المؤمن وقال ربكم ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) وهم النبي ﷺ بطرد اولئك الضعفاء ليس من المعاصي البته، وقد توهم ذلك بعضهم، وانما هو من باب الاجتهاد في اداء الرسالة، لأن النبي ﷺ كان بهم بدعوة الرؤساء، لأن الدهماء تبع لهم، فاهتداه رئيس واحد يؤدي الى اهتداء اتباعه، وقد يكثر عددهم حتى يبلغ الآلاف، واهتداه رجل ضعيف لا يتعداه الى غيره، وان تعداه لم يزد على زوجته وأولاده. ولم بهم النبي ﷺ بطرد اولئك الضعفاء من مجلسه طردا مؤبدا، وانما هم أن يخص للرؤساء مجلسا خاصا بهم، لترفعهم عن مجالسة الضعفاء، فنواه الله عن طردهم وأخبره ان ما يرجي من الخير في تعليمهم اعظم مما يرجي من دعوة الرؤساء. يوضح ذلك ما نزل في شأن ابن أم مكتوم. وهو قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم عيس وتولى (١) أن جاءه الاصحى (٢) وما يدريك لعله يزكى (٣) أو يذكر فتشفعه الذكرى (٤) أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦) وما عليك الا يزكى (٧) وأما من جاك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه تلهى (١٠) وقوله تعالى: ما عليك من حسابهم من شيء إلخ، يعنى ليس عليك يا محمد حساب هؤلاء الضعفاء، اذ لا تعلم مقدار ايمانهم وهزلتهم عند الله وأعمالهم الصالحة، فلعلها أعظم من ايمان الرؤساء وأعمالهم المرجوة بعد اهتدائهم، كما أنه ليس عليهم من حسابك شيء، لأن

حساب الخلق كلهم ، سواء منهم الاعلون منزلة كالرسل والانبياء والصدّيقين والشهداء
والصالحين ، والادنون منهم كإمامة المؤمنين ، أما هو على الله ، فليس عليك إلا
البلاغ وعليهم الطاعة والاتباع . وهذا كما قال تعالى : في سورة الرعد فانما عليك
البلاغ وعايينا الحساب (٤٠) ومثل ذلك قوله تعالى : في سورة الشعراء حكاية عن
قوم نوح قالوا أنؤمن لك وأتبعك الارذلون (١١١) قال وما على بما كانوا
يعملون (١١٢) ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون (١١٣) وما أنا بطارد
المؤمنين (١١٤) ان أنا الا نذير مبين (١١٥) صدق الله العظيم تشابهاً لقلب
الكافرين الأولين والآخرين في كل زمان ومكان ، الجاه والمال يطغيان ذوبهما
فيتكبرون عن مجالسة الضعفاء . والضعفاء هم اتباع الانبياء ولأئمة المصلحين ، وهم
الذين ينصرون الحق ويجاهدون في سبيل الله . وقوله تعالى : في سورة الكهف
واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك
عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان
أمره فرطاً (٢٨) أمر الله نبيه أن يجلس نفسه مع الذين يعبدون الله تعالى ويذكرونه
بقلوبهم والستهم لا يقصدون بذلك إلا طلب رضاه ، ونهاه أن يطيع الغافلين عن
ذكره المتبعين لأهوائهم المتعدين لحدود الله . وقوله تعالى : فتطردم فتكون من
الظالمين . معناه ، لو كان عليك حسابهم لجاز لك ان تطردم ، اذ لا يحق لأحد ان
يطرد أحداً الا إذا كان الطارد هو المتصرف في المطرود ، وهو الذي يحاسبه على
عمله فيثيبه أو يعذبه ، ولو طردتهم لكنت من الظالمين ، لأن الظلم هو وضع الشيء
في غير موضعه : ويمكن أن يقال ان الظلم هو كل ما يكرهه الله سبحانه ، والله
يكره طردم ويجب الكون معهم واكرامهم . وقد علم الله سبحانه ان رسوله
المعصوم لا يطردم ، وإنما عبر بهذه العبارة التي فيها شدة وتوكيد تحذيراً للمؤمنين

من احتقار الضعفاء. قال رسول الله ﷺ وإنما تنصرون وترزقون بضعطائكم.
 فحصر النبي ﷺ أسباب النصر وسعة الرزق في اعانة الضعفاء والاهتمام بشأنهم
 واعطائهم حقوقهم وافية. ونحن نشاهد في هذا الزمان أن كل أمة تهتم بحقوق
 الضعفاء من المساكين والفقراء واليتامى وذوي العاهات كالزمنى والعمى والصم البكم
 وسائر العاجزين وذوي الامراض المزمنة ينصرها الله ويوسع رزقها. وكل أمة
 تضيع حقوق الضعفاء يخذلها الله ويضيق رزقها.

ثم قال تعالى: وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من
 بيتنا اليس الله بأعلم بالشاكرين (٥٣)

المعنى العام

وقد ادعيت كلام الحازن في تفسير هذه الآية، فأثرت لقله بنصه. قال
 الحازن: وكذلك فتنا بعضهم ببعض يعنى وكذلك ابتلينا الغنى بالفقير والفقير
 بالغنى، والشريف بالوضيع، والوضيع بالشريف. فكل احد مبتلى بضده، فكانت
 ابتلاء الاغنياء الشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوا إلى الاسلام
 وتقدموا عليهم، فامتنعوا من الدخول في الاسلام لذلك، فكان ذلك فتنة وابتلاء
 لهم. وأما فتنة الفقراء بالاغنياء، فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم،
 فكان ذلك فتنة لهم، (ليقولوا) يعنى، الاغنياء والشرفاء والرؤساء (أهؤلاء من
 الله عليهم من بيتنا) يعنى، من على الفقراء والضعفاء بالاسلام ومتابعة الرسول ﷺ،
 وهذا اعتراض من الكفار على الله تعالى، فأجابهم بقوله (اليس الله بأعلم
 بالشاكرين) يعنى انه تعالى اعلم بخلقه وباحوالهم واعلم بالشاكرين من الكافرين.
 ومثل هذا ما حكى الله عن قوم نوح في سورة هود: (فقال الملأ الذين كفروا من

قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل لنظنكم كاذبين (٢٧) زعم الرؤساء والأشراف الطاغوت بحماهم وما لهم أنه لا فضل لبشر على بشر، ونوح بشر، فكيف تجب طاعته على من هو مثله في البشرية، ولا سيما وقد أوتي من الجاه والمال ما لم يؤنه نوح والذين آمنوا معه، وقالوا ما نرى أحدا اتبعك من الأشراف، وإنما اتبعك الضعفاء والفقراء، وهم سفلتنا وأخسائونا، وإنما اتبعوك بادي الرأي لأول رأى بدا لهم ولم يتعمقوا في التفكير، ولو فكروا وانظروا بمقولهم لوجدوه بشرا مثلهم لا فضل له عليهم فلم يتبعوه ولم يؤمنوا به. وقولهم: بل لنظنكم كاذبين، خطاب لنوح ومن آمن معه، فنوح بزعمهم كاذب في ادعاء الرسالة، والمؤمنون معه كاذبون في تصديقه وكذلك قال بنو اسرائيل لنبيهم حين سألوه أن يولى عليهم ملكا فأخبرهم أن الله قد بعث لهم طالوت ملكا، قالوا أتى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال، قال: إن اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء البقرة (٢٤٧) وكما حكى الله عن المشركين في سورة الزخرف: (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (٣١) امتنعن هؤلاء المشركون لما سمعوا من أهل مكة أن ينزل الله القرآن على محمد، وهو رجل فقير، وبترك أعيان مكة والطائف كالوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود وأمثالهما، فرد الله عليهم بقوله (أهم يقسمون رحمة ربك) فالجهال الطغاة في كل زمان ومكان إنما يزنون الناس بالمال والرياسة، وهو ميزان فاسد. قال تعالى: في سورة سبأ (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون (٣٧) وقال تعالى: في سورة المؤمن (أيحسبون أنما نمدمهم به من مال وبنيين، لسارع لهم في الخيرات بل

لا يشعرون (٥٤ - ٥٥) وكذلك جاء في صحيح البخارى من حديث ابن عباس ان هرقل عظيم الروم سأل ابا سفيان ، فيما سأله ، عن احوال النبي : فاشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال أبو سفيان قلت ، بل ضعفاؤهم ، قال : هم اتباع الرسل . والحاصل كما قال ابن كثير ان مشركى قريش كانوا يسخرون من آمن بالنبي من ضعفائهم ويهذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا . فرد الله عليهم بقوله ، أليس الله أعلم بالشاكرين . يعنى ان الايمان بالله ورسوله لعمدة عظيمة لا يعطاها إلا من يقوم بشكرها ، والله أعلم بالشاكرين فيخصهم بالنعيم العظيم ، وهو أعلم بالكافرين فيجرمهم منها . وفي صحيح مسلم من حديث ابي هريرة قال قال رسول الله ﷺ إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم . وقال تعالى : في سورة الاحقاف (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه (١١) أى لو كان الايمان بمحمد وما جاء به خيرا ما سبقنا اليه عبيدنا وحلفاؤنا وفقراؤنا ، وكيف يهتدى هؤلاء مع فقرهم وضعفهم وحقارتهم إلى ما لا نهتدى اليه نحن مع جاهنا ومالنا وعظمتنا ؟ وقال تعالى في سورة مريم (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا (٧٣) معناه ان الرؤساء والاغنياء من المشركين قالوا للؤمنين أينما أعلى مقاما وأحسن مجلسا ، فرد الله عليهم بقوله ، وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم احسن انا وريا . يقول سبحانه ، ان اعتر هؤلاء بجاههم ومالهم فقد اهلكنا اجيالا كثيرة هم احسن منهم منظرا واكثر مالا وانخر انا ، فلم يفتن عنهم ذلك شيئا .

ثم قال تعالى : وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم

على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه
 غفور رحيم (٥٤) وكذلك الفصل الآيات وتستبين سبيل المجرمين (٥٥)

المعنى العام

قوله تعالى : وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا إلخ . هذه من آيات التبشير بمعنى
 إذا جاءك يا محمد الذين يصدفون الرمل كلهم فيما جاءوا به من الآيات ، ولا سيما
 خاتمهم محمدا ﷺ فبشرهم وسلم عليهم وأخبرهم بسعة رحمة الله وأنه أوجبها على
 نفسه كرما وفضلا أن كل من عمل معصية بسبب غلبة الجهل ، وهو السفه وعدم
 العمل بمقتضى العقل ، ثم تاب توبة نصوحا فإن الله يغفر ذنبه ويرحمه . أخرج
 مسلم عن سلمان عن النبي ﷺ أنه قال ، ان لله عز وجل ، مائة رحمة ، فعنها
 رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعة وتسعين
 إلى يوم القيامة . وقوله تعالى : وكذلك نفصل الآيات إلخ . أى كما بينا لك يا محمد
 براهين التوحيد نبين لك سائر المسائل التى تتوقف سعادة أمتك العاجلة والآجلة
 عليها لتكون على علم بسبيل الخير كلها وتحميط علما بطريق المجرمين فتحذر أمتك
 سبيلهم . قرئ هذا الفعل بالتاء ونصب السبيل ، وقرئ بالتاء والياء ورفع السبيل .
 والمعنى على قراءة الرفع ولنظائر لك ولمن أتبعك سبيل المجرمين ، فإن من عرف الشر
 توفاه قال الشاعر :

عرفت الشر لا للشر ، لكن لتوقيه ومن لم يعرف الشر من الناس يقع فيه
 وأما على قراءة النصب ، فالمعنى ولتعرف طريق المجرمين ، فتحذر ، أمتك
 من سلوكه .

ثم قال تعالى ، قل انى لهيب أن أعبد الذين تدعون من دون الله ؛ قل

لا اتبع أهواءكم ، قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين (٥٦) قل إني على بينة من ربي وكذبتكم به ما عندي ما تستعجلون به ، ان الحكم إلا لله يتص الحق وهو خير الفاصلين (٥٧) قل لو أن عندي ما تستعجلون به لتقضى الأمر بيني وبينكم ، والله أعلم بالظالمين (٥٨)

المعنى العام

قوله سبحانه : قل إني نهيته أن أعبد الذين تدعون إلح . أمر من الله تعالى لرسوله أن يخبر المشركين بأن الله نهاه عن عبادة الذين يعبدون المشركون كيفما كانوا ، سواء كانوا ملائكة أم أنبياء أم صالحين أم غيرهم . ونهى الله سبحانه عن ذلك جميع الرسل وأمرهم بواسطتهم ، وأقام لهم البراهين على فساد عبادة المخارق وبطلانها . وإنما تنافى العقل . ومثل هذا قوله تعالى : في سورة المؤمن (قل إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين (٦٦) وأمره سبحانه أن يقول لهم ، لا اتبع أهواءكم يفعل ما تشتهون من مالوفاتكم وعاداتكم الباطلة من الشرك بالله والظلم ، ولو فعلت ذلك لضللت ، فقد عصمتني الله من الضلال وجعلني أول المهتدين من هذه الأمة وأول المهادين لها . وإنما اتبع ما يوحى إلى من ربي ، وأبلغكم رسالته ، فمن قبلها سعد وقاز ، ومن ردما هلك . ثم أمره سبحانه أن يقول لهم ، لو أن عندي ما تستعجلون به من العذاب أو الآيات أو هما معا لأبديته لكم وقضى الأمر بهلاككم ، والله أعلم بالظالمين المشركين المعاندين لرسوله المعرضين عن ذكره ، وهو الذي سيجازيهم . وقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ ، يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ، فقال : لقد لقيت من قومك

وكان أشد ما أقيمت منه يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبدالمطلب بن عبدللال فلم يجئني إلى ما أردت ، انطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم استفق إلا بقرت الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسعابة قد ظلمتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فناداني ملك الجبال وسلم علي ، ثم قال يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأموك ، فما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ، فقال رسول الله ﷺ ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا . والجمع بين هذا الحديث وبين مدلول الآية ، أنه لو كان عند النبي ﷺ ما يستعجلون به من العذاب والآيات ، لأوقفه بهم حين يضيق صدره ويشد أذاهم وعنادهم وتعديهم له ، ولكن ذلك بيد الله ، وهو لا يريد أن يطلب من الله لهم إلا الهداية والمغفرة ، لأن الله أرسله رحمة للعالمين ، ولم يرسله عذابا .

ثم قال تعالى : وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين (٥٩)

المعنى العام

قد فسر النبي ﷺ هذه الآية بنفسه ، فروى البخاري من حديث عبد الله ابن عمر ، بأن رسول الله ﷺ قال : مفاتيح الغيب خصص لا يعلمها إلا الله ، إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ما ذا تكسب ذنبا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير . وقال القسطلاني

في شرح هذا الحديث ، قال الزجاجي ، من زعم ان احدا غير الله تعالى يعلم شيئا من هذه الخس فقد كفر بالقرآن العظيم . ومفاتيح الغيب جمع مفتاح بفتح الميم ، هي خزائنه ولما كانت الارض كلها تنقسم الى قسمين لا ثالث لهما ، قسم البر وقسم البحر ، اخبر سبحانه وتعالى انه يعلم ما في البر وما في البحر علما تفصيليا محيطا بكل شيء من الموجودات واحوالها كلها ، ويعلم ما في البحر كذلك ، فلا يخفى عليه شيء . وهذا العلم المحيط خاص به سبحانه . وقوله : ولا حبة في ظلمات الارض ، واحدة الحسب ، وهو انواع كثيرة ، منها ما يكون غذاء اللسان والحيوان ، ومنها ما يكون دواء . وقوله : ولا رطب ولا يابس ، يعم الاشياء كلها ، لانها لا تخرج عن الرطوبة واليبس . وقوله : إلا في كتاب مبين ، هو علم الله ، ويقال انه اللوح المحفوظ .

ثم قال تعالى : وهو الذي يوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالثهار ثم يعثمكم فيه فيقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون (٦٠)

المفردات

التوفى ، هنا توفى نوم ، ويطلق على الموت ، قال تعالى : في سورة الزمر (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون (٤٢) قال البيضاوي أى يقبضها من الابدان ، بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها ، أما ظاهرا وباطنا ، وذلك عند الموت ، أو ظاهرا لا باطنا ، وهو في النوم . جرحتم كسبتم . يعثمكم يوقظكم .

المعنى العام

يقول تعالى: وهو أى الله وحده الذى يقبض أرواحكم بالليل عند النوم فى الظاهر، ويعلم ما كسبتم فى النهار من خير وشر. ثم يوقفكم فى النهار ليقضى أجل مسمى، وهو مدة العمر. ثم إليه مرجعكم بالبعث فيخبركم بجميع أعمالكم ويجزيكم عليها، ان خيرا نخير، وان شرا نفسر. وكان رسول الله ﷺ يقول عند النوم باسمك رب، وضعت جنبى وباسمك أرفعه، ان امسكت نفسى فاغفر لها، وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. وفى هذه الآية وآية الزمر والحديث الصحيح لإثبات التصرف له فى جميع خلقه، وفقهه عن غيره كائنا من كان. وهو فى غاية الوضوح، فسبحان من طبع على قلوب المشركين الذين يقرآن القرآن ويمرفون اللغة العربية، وعلى قلوبهم أقال؛ فلا يفهمون هذا المعنى. قال تعالى: فى سورة الاسراء وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه، وفى آذانهم وقرا، واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على آذانهم نفورا (٤٦) سبحانه يضل من يشاء ويهدى من يشاء.

ثم قال تعالى: وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة، حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون (٦١) ثم ردوا الى الله مولاهم الحق الا له الحكم وهو أسرع الحاسبين (٦٢)

المعنى العام

قوله تعالى: وهو القاهر فوق عباده، الآية. كل شئ من العوالم داخل تحت قهر الله وخاضع له. وهذا كقوله تعالى: فى سورة النحل ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والمنتكة وهم لا يستكبرون (٤٩). يخافون ربهم

من فوقهم ويفعلون ما يومرون (٥٠) قال صاحب فتح البيان، والمعنى، يسجد لله ما في السموات وما في الأرض، والمنشكة وهم جميعا لا يستكبرون عن السجود (بخافون) أى حال كونهم خائفين (ربهم من فوقهم) أو جملة مسابقة لبيان نفي استكبارهم. ومن آثار الخوف عدم الاستكبار، أى يخافون عذاب ربهم كأننا من فوقهم، أو يخافون ربهم حال كونه من فوقهم عاليا عليهم علو الرتبة والمكانة والقدرة بآثامنا عنهم بالاستواء على العرش. ويرسل عليكم حفظة هم الملائكة المكلفون بكتابة أعمال العباد كما قال تعالى: في سورة الانفطار (وان عليكم لحافظين، كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون (١٠، ١١، ١٢). وقوله تعالى: حتى إذا جاء أحدكم الموت، أى انتهى أجله توفته رسلا، وهم الملائكة يقبضون روحه، وهم لا يفرطون بتوان أو تأخير فى ما حد الله لهم. ثم ردوا، أى العباد كلهم الى الله بالبعث، وهو سيدهم الحق، وسيادة غيره مجازية محدودة. الاله، لا لغيره، الحكم وهو أسرع الحاسبين، لأنه لا يحتاج فى الحساب الى أعمال فكر لكامل عليه واحاطته.

ثم قال تعالى: قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية
لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (٦٣) قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب
ثم أنتم تشركون (٦٤)

المفردات

التضرع، اظهار الضراعة، وهى الذلة. فالمراد بالتضرع، التذلل لله تعالى فى وقت الدعاء.

المعنى العام

كان المشركون في الجاهلية الأولى يوحّدون الله ويخلصون الدعاء له في الشدائد
لعلهم ان الشرك لا يرضاه الله، فاذا زالت الشدة عادوا الى الشرك. اما مشركو
هذا الزمان فانهم يشركون بالله ويدعون معه غيره في الشدة والرخاء، بل كثيرا
ما يخلصون الدعاء لشركائهم ولا يذكرون الله أصلا، هذا باللسان، وأما القلب
فاعتماده على غير الله، بدليل ان الواحد منهم يضع الزكاة وسائر الحقوق المالية،
وإذا نذر لولى من الأولياء نذرا أو التزم أن يعمل له احتفالا أو يذبح له ذبيحة
لا يكاد يخلف ذلك أبدا، لأنه يخاف ذلك الولي الذي انخذه من دون
ما لا يخاف الله ورجو منه من الخير ودفع الشر ما لا يرجو من الله، ولذلك
إذا استخلفته بالله يحلف ألف مرة، وإذا استخلفته بذلك الولي الذي جملة الله
ندا لا يحلف أبدا. وإذا كان له حق على مشرك آخر وحلف له بالله لا يصدقه
حتى يحلف بالولى. فقد تعادوا في الشرك حتى خرجوا منه الى إخلاص العبادة
لشركائهم، فنعوذ بالله من الخذلان واستحواذ الشيطان. قال تعالى مخاطبا رسوله
صلوات الله وسلامه عليه: قل يا محمد لاشركين من ينجيكم من ظلمات البر والبحر
و شدائدهما وهالكهما تسألونه النجاة مظهرين التذال بالستكم ومضميرين بقلوبكم
قائلين في تضرعكم يا ربنا فرج عنا هذا الكرب وأنجنا من هذه المملكة فوعزتكم
وجلالك لن أنهيتنا من هذه المصيبة لتكونن من الشاكرين لك ولا لشرك بك
أحدا. ثم قال تعالى: مخاطبا رسوله، قل لهم يا محمد، الله ينجيكم منها وحده ويفرجها
عنكم ثم انتم بعد ذلك تشركون به. وفي هذا الكلام من التوبيخ والنبكيت ما لا يخفى
على من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم قال تعالى : قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من
تحت أرجلكم أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضهم بأس بعض أنظر كيف تصرف الآيات
لعلهم يفقهون (٦٥)

المفردات

بلبسكم شيئا ، يخلطكم فرقا متحزبين على أهواء شتى فيذهب القتال بينهم .

المعنى العام

روى الأئمة عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في تفسير هذه الآية ، لا يتسع
لها المقام ، وما ذكر هنا حديثا واحدا يجمع أكثر ما فيها من المعاني . أخرج
الامام مسلم من حديث ثوبان ، أن رسول الله ﷺ قال : ان الله زوى لي
الأرض ، فرأيت مشارقتها ومغارها ، وان امتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها .
وأعطيت الكنزين ، الأحمر والأبيض . وانى سألت ربي لآمتي ان لا يهلكها بسنة
هامة ، وان لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، وان ربي
قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فانه لا يرد . وانى أعطيتك لآمتك ان لا أهلكهم
بسنة هامة ، وان لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . ولو اجتمع
عليهم منى باقطارها ، حتى يكون بعضهم بهلك بعضها ، ويسبي بعضهم بعضا .
ورواه البرقاني في صحيحه وزاد وانما أخاف على آمتي الأئمة المضلين ، وإذا وقع
عليهم السيف لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق جبي
من آمتي بالمشركين ، وحتى تعبد مقام منى الأوثان ، وانه يكون في آمتي
كذابون ثلاثون ، كل يزعم انه نبي ، وانا خاتم النبيين ، لا نبي بعدى . ولا تزال

طائفة من أمته على الحق منهورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى. كذا في فتح المجيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله. ونقل ابن كثير نحوه في تفسير هذه الآية من رواية أحمد بسنده إلى شداد بن أوس عن النبي ﷺ. وقوله سبحانه، انظر كيف نصرف الآيات، أي نبينها ونوضحها لهم يفقهون، أي يفقهون حجج الله وبراهينه. وكذب به قومك، أي العرب عامة، وقريش خاصة في أول الإسلام، وهو الحق الذي لا ريب فيه، وسيتحقق ويظهر قل لهم يا محمد، لست عليكم بحفيظ فأجبركم على الإيمان به أو أعاقبكم على التكذيب، إنما أنا منذر ومبلغ، وحسابكم على الله. قال ابن كثير، قال زيد بن أسلم، لما نزلت قل هو القادر على أن يعث عليكم عذابا من فوقكم، الآية. قال رسول الله ﷺ لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف، قالوا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال نعم. فقال بعضهم، لا يكون هذا أبدا أن يقتل بعضنا بعضا، ونحن مسلمون. فنزلت، انظر كيف نصرف الآيات لهم يفقهون، وكذب به قومك وهو الحق، قل لست عليكم بوكيل لكل نبي مستقر وسوف تعلمون. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

ثم قال تعالى: وكذب به قومك وهو الحق، قل لست عليكم بوكيل (٦٦) لكل نبي مستقر وسوف تعلمون (٦٧) وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وأما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (٦٨) وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء، ولكن ذكروا ما علمهم يتقون (٦٩)

المعنى العام

قوله تعالى : لعل نبأ مستقر إلخ . أى لكل خبر حقيقة ووقوع كما قال تعالى : فى سورة ص وتعلمن نبأه بعد حين (٨٨) وقوله تعالى : فى سورة الرعد لكل أجل كتاب (٣٨) . وقال تعالى : فى سورة فصلت (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد (٣٥) وقوله تعالى : وسوف تعلمون ، هو كقوله تعالى : فى آخر سورة طه (قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن امتدى (١٣٦) قوله تعالى : وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا إلخ ، نهى الله رسوله ﷺ وجميع من اتبعه وأمن به عن القعود والاجتماع مع من يخوض فى آيات الله بالكذب والاستهزاء وأوجب عليهم أن يفارقوه ما داموا فى ذلك الخوض إظهارا لسخطهم على ذلك وإنكارا عليهم . وقوله تعالى : وأما بنسيتك الشيطان إلخ . يعنى إذا نسى المؤمن وجلس مع أولئك فلا حرج عليه ، لأن الله لا يؤاخذ على البسيان ، ولكن متى ذكر وجب عليه أن يفارقه ، لأنهم ظالمون بسبب كفرهم وطمعهم فى كتاب الله . ومن رضى بالكفر وشارك أهله صار مثلهم . وهذه هى الآية المشار إليها فى سورة النساء بقوله تعالى : (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، انكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا (١٤٠) . وقوله تعالى : وما على الذين يتقون من حسابهم إلخ . لما نزلت هذه الآية كان المسلمون إذا ذهبوا إلى المسجد الحرام بمكة يسمعون المشركين يخوضون فى آيات الله بالكذب والاستهزاء فيخرجون من ذلك إذا أرادوا الطواف بالبيت فاخبر الله تعالى ان كل

مؤمن بذل جهده في تقوى الله لا يَأْتِم ، ولو سمع المشركين يستهزؤون بآيات الله اذا كان عاجزا عن تغيير المنكر باليد واللسان واضطر الى الاجتماع معهم وكره خوضهم بقلبه ، اذ لا يكذب الله نفسا الا وسعها . واما اذا كان قادرا على الكلام فلا يسمع السكوت ، بل ينبغي له ان يذكرهم . فان لم تنفع الذكرى انكر عليهم ما وسعه الانكار . ولا تنافى بين هذه الآية وآية النساء ، الا ان هذه مكية ، نزلت حين كان المؤمنون مستضعفين . وتلك مدنية نزلت في وقت قوة الاسلام .

ثم قال تعالى : وذو الذين اتخذوا دينهم لعا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به ان تبذل نفسا بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها اولئك الذين ابسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون (٧٠)

المفردات

الابسال ، الضيم والمنع ، ابسلوا ، حرموا . وتبذل تحرم من الثواب . العدل ، الفداء ، واصله المساواة .

المعنى العام

قوله تعالى : وذو الذين اتخذوا دينهم ، الخ . يعنى اتوك يا محمد الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، أى بنوا دينهم على أمور ليس فيها منفعة دنيوية ولا اخروية ، بل فيها ضرر محقق . وقد نظرت في الاديان المخالفة للاسلام فوجدتها حقيقة لهوا ولعبا ، فهى مبنية على الشرك بالله وتشديد المعابد وزخرفةها واعداد المآكل والمشارب في أيام مخصوصة . وفي مقدمة تلك المشارب الخمر التى هى أم الخبائث واجتماع الرجال والنساء على الغناء وآلة اللهو . ومن انحرف من المسلمين عن سنة

الذي يتشبه بارتسك ويسير بسيرتهم ، فنحقيق ان كل من لا يدين بالاسلام الصحيح فقد اتخذ دينه اجبا ولهوا . قال تعالى : وذكر به ، اى بالقرآن ، لتلا تبسل نفس ، اى تحرم من الثواب وتسلم للعذاب بما كسبت من الشرك . ليس لها من دون الله ولى اى قريب يدافع عنها ولا شفيع يشفع لها ، لانها اشركت بالله ، ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار وما للظالمين من انصار . وان تعدل كل عدل ، اى تبذل كل شىء من الفداء لا يقبل منها . اولئك الذين ابسلوا حرموا من الثواب واسلموا للعذاب بما كسبوا من الكفر لهم فى جهنم شراب من حميم يصهر به ما فى بطونهم وعذاب اليم شديد موجه بما كانوا يكفرون .

ثم قال تعالى : قل ائذعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على اعقابنا بعد اذ هادانا الله كالذى استهوت به الشياطين فى الارض حيران له اصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا ، قل ان هدى الله هو الهدى وامرنا لنسلم لرب العالمين (٧١)

المعنى العام

لما قال المشركون للذى صلى الله عليه وسلم ، هلم فاعبد معنا الهتنا امره الله سبحانه ان يقول لهم ائذعوا من دون الله آلهة مخلوقة عبدتموها جهلا وضلة لا تنفع من عبدها ولا تضر من كفر بها . ونرد على اعقابنا ، اى نرجع الى الشرك ، والكلام بحسب المؤمنين الذين تركوا الشرك وآمنوا بالله ورسوله ، بعد اذ هادانا الله الى الاسلام فنكون كالذى استهوت به الشياطين ، اى اضلته لتهلكه ، فصار يخط فى الارض سائرا على غير هدى حيران لا يعرف طريقا له اصحاب على المحجة البيضاء يدعونه الى الهدى ، الى طريق السلامة والسعادة قائلين ائتنا لتسلم من الهلاك فلم يستجب لهم ،

فذلك مثل من ارتد عن الاسلام بعد أن هداه الله اليه . ثم قال تعالى : قل يا محمد ان الهدى ، أى طريق الحق والامن والسعادة ، هو طريق الله الذى هدى اليه رسوله والمؤمنين . فكيف نتركه ، وقد أمرنا الله ان نسلم وجوهنا وقلوبنا وأنفسنا له ونتبع رضوانه ، ومن يعصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم .

ثم قال تعالى : وان أقيموا الصلاة وآتوه وهو الذى اليه تحشرون (٧٢) وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير (٧٣)

المفردات

الحكيم هو الذى يعلم الاشياء على حقيقتها ووجودها فى غاية الاحكام . وهو بهذا المعنى خاص بالله تعالى . والحكيم من الناس من يعرف الاشياء حسبا يتسع له علم البشر ويفعل الخير ويدل عليه . والخبير هو العليم .

المعنى العام

قوله تعالى : وان أقيموا الصلاة ، عطف على قوله لنسلم لرب العالمين ، فالاسلام هو توحيد الله بالقلب واللسان بالاعتقاد والعمل : والصلاة أفضل الاعمال وأهمها . والمحافظة عليها مع كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر دليل على صدق المسلم فى اسلامه . والانتفاع بالصلاة هو التقوى ، فلذلك قال تعالى وآتوه ، أى امتثلوا جميع ما أمركم به واجتنبوا جميع ما نهاكم عنه . وهو الذى اليه تحشرون ، أى تبعون اليه وحده ليجازيكم على اعمالكم . وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق أى بالحكمة والاتقان فى غاية الكمال . ويوم يقول كن فيكون . ويوم القيامة يقول

الله سبحانه لسكل شيء يريد أن يكون من البعث والحشر وما يكون فيهما، كن فيكون ما اراده الله. قوله الحق فلا يتخلف عن أمره شيء ولا يسبقه شيء، بل كل شيء خاضع له، لأن الملك كله له وليس لغيره منه شيء لا حقيقة ولا مجازا، يوم ينفخ في الصور، وهو القرن ينفخ فيه الملك فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله. ثم ينفخ فيه نفخة أخرى فيصعق من في السموات ومن في الأرض، إلا من شاء الله ويموت كل شيء ولا يبقى إلا الله كما قال تعالى في سورة القصص: كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون (٨٨) وقال تعالى في سورة الرحمن: كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٦، ٢٧). قوله تعالى: عالم الغيب والشهادة. أي ما غاب عن خلقه وما يشاهدونه ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الحكيم فيما خلقه وفيما فعه وفيما شرعه. الخبير العليم.

ثم قال تعالى: واذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة أتى أراك وقومك في ضلال مبين (٧٤) وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين (٧٥) فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين (٧٦) فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل، قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين (٧٧) فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم أتى برى مما تشركون (٧٨) أتى وجهه جهى للذى فطر السموات والأرض خنيفا وما أنا من المشركين (٧٩)

المفردات

المذكوت ، مصدر ملك ، كالمملك ، ومثله رحمت من رحم ورهبوت من رهب . جن الليل ، متر كل شئ بظلامه . أفل ، النيرغاب . بزغ ، طلع وانتشر ضوءه ، الصنم : كل معبود على شكل انسان أو حيوان .

المعنى العام

ثم قال سبحانه وتعالى : حاكيا من قصة ابراهيم ما فيه العبرة والارشاد الى معرفة الحق بدليله واقامة البرهان على توحيده وتنزيهه ، واذ قال ابراهيم لاييه آزر . وجاء في الاخبار أن له اسما آخر ، وهو تسارح . وما قيل ان آزر ليس اسمه ، وانه اسم صنم لا يصح . والذي ذهب اليه ابن جرير وغيره من محقق السلف أن آزر اسم حقيق له . اتخذ اصناما آلهة ، استفهام انكارى ، أى كيف اتخذ الاصنام التي صنعها الناس بايديهم آلهة ، وهذا كما قال تعالى حكاية عن ابراهيم أيضا فى سورة الصافات : قال أنعبدون ما نتحنون ، (٩٥) والله خلقكم وما تعملون (٩٦) يعنى كيف تعبدون ما نتحنونه من التماثيل ، والله خلقكم وخلق تلك الاحجار التى نتحنون منها التماثيل ، والمخلوق لا يستحق العبادة لعجزه وفقره ، وقال تعالى فى سورة مريم : واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا (٤١) اذ قال لاييه يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يقنى عنك شيئا (٤٢) يا ابت انى قد جئت من العلم ما لم يأتك فاتمنى اهدك صراطا سويا (٤٣) يا ابت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا (٤٤) يا ابت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا (٤٥) قال أرأغب أنت عن آلهتى ، يا ابراهيم لأن لم تنته لأرجمك واهجرنى مليا (٤٦) قال سلام عليك ما استغفر لك ربى انه كان

في حفا (٤٧) واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربى عسى أن لا اكون
 بدعاء ربى شقيا (٤٨) فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب
 وكلا جعلنا نبيا (٤٩) ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا (٥٠)
 وقال تعالى في سورة الزخرف: (وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه انى براء مما
 تعبدون، إلا الذى فطرنى فانه سيهدين، وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون
 (٢٦، ٢٧، ٢٨) وقال تعالى فى سورة ابراهيم: (وإذ قال ابراهيم رب
 اجعل هذا البلد آمنا واجنبى وبى أن نعبد الاصنام، رب إنهن أضللن كثيرا من
 الناس (٢٥، ٢٦). صدق الله العظيم وصدق عبده ورسوله ابراهيم، ان الاصنام
 والاثوان أضللن كثيرا من الناس فى كل زمان ومكان. ولم يضلنهم بكونهن
 احجارا أو رخاما أو ذهباً أو شمساً أو قمرًا أو نارا أو ماء أو قبرا أو قبابا
 أو اشجارا أو اكواتا من الحجارة أو أشخاصا أحياء أو أمواتا أو دواب، وإنما
 ايسر عليهم الشياطين فآوهمهم، ثم اقنعهم ان تلك الاشياء قد حل فيها سر
 الالهية، وهو ما يسميه المغاربة (بركة) فهذا السر عندهم يجوز ان يحل فى كل
 شىء، ومتى حل فى شىء وجب تقديسه وعبادته وأصبح يضرب وينفع، فلو ان سادنا
 اخذ احجارا من جبل وبى بها قبة وضربها على قبر، سواء اكانت فيه جثة
 أم لا. وسواء اكانت تلك الجثة جثة صالح أو طالح أو حيوان. فاذا وضع على
 ذلك الضريح تابوتا وسقارا من حرير وعلق المصابيح الثمينة والثرىات وفرش ارض
 القبة بالزراى وملاؤها جوها طيبا بالبخور وغيره وتزيانزى المشايخ بتفخيم العمامة
 وتكويرها واظالة اللحية وشعر الرأس وابس الثياب الفضفاضة، واخذ يحكى حكايات

ثبت ان ذلك المدفون له كرامات وانه يقضى الحاجات يتمثلت عليه عبادة
الآوثان، وياتونه من كل مكان . فما شاء من هدايا ونذور وشمع وبخور وثيران
تخور ومواسم يختلط فيها الرجال بالنساء والحابل بالنابل . وهذا اصل عبادة
الاصنام والآوثان قديما وحديثا . وبعض المضامين من الذين يسمون انفسهم او
تسميهم العامة علماء يزيدونهم ضلالا ، فيسمون ذلك الشرك كرامات الاولياء ،
ويسمون كل وثن وليا ، وينسبون ذلك الوثن إلى اسم نبي ، كمقام النبي جرجيس
في الموصل والنبي بولس بقرب الموصل في خرائب نينوى والنبي شيث في كركوك .
والتحقيق انه لا يوجد قبر نبي معلوم إلا قبر نينا محمد عليه السلام . واما قبر الخليل
ابراهيم فليس بمعلوم بالتحسين ، إلا انه دفن بقرب المكان المنسوب اليه في الاردن .
ومن هذا القبيل ضريح النبي ذكريا في قلب جامع بني أمية بدمشق ، فانك ترى
المصلين يصلون ، وإلى جانبهم العابدين والعبادات والطائفين والطائفات بذلك الوثن
المنسوب كذبا إلى ذلك النبي . ولو فرضنا انه مدفون هناك ما جاز ان يتخذ قبره
وثنا ولا يبنى عليه ولا يطاف به ولا ينذر له ولا يعبد بأى نوع من أنواع العبادة .
روى مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار مرسل أن النبي عليه السلام
قال ، اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم
مساجد . ووصله البزار عن أبي سعيد الخدري . وصححه ابن عبد البر وغيره . فلو لا
إن الله استجاب دعاء رسوله وصانته بالجدران الثلاثة التي بنيت حول حجراته في
زنان بني أمية في خلافة الوليد بن عبد الملك لتوصل الجهال إلى اتخاذ قبره وثنا
ولعبده من دون الله . وهذه من المعجزات العظام . ويرحم الله الامام ابن القيم إذ
يقول في نونية .

ولقد نهانا أن نصير قبره عيدا حذار الشرك بالرحمن

ودعا بأن لا يجعل القبر الذى
فأجاب رب العالمين دعاه
حتى غدت أرجاؤه بدعائه
قد ضمه وثنا من الأوثان
وأحاطه بثلاثة الجدران
في عزة وحماية وصيان

قال شارح النونية الدكتور محمد خليل المراس حفظه الله في شرح هذه
الآيات. ونهـام كذلك أن يتخذوا من قبره عبداً يحجون إليه ويحتمعون عنده،
فقال فيما رواه أبو هريرة (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عبداً، وصلوا
علي، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) رواه أبو داود.
ودعا الله عز وجل أن لا يجعل قبره الذى ضم جسده الشريف وثنا بسجده
له ويظاف به ويصلى عنده، فقال، اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله
على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، رواه مالك في الموطأ.
فأجاب الله عز وجل دعاء نبيه ﷺ فأحاط قبره بثلاثة جدران حتى لا يكون
بارزاً. فأصبحت أنحاء القبر بركة دعائه في منعة وصيانة أن يرتكب عندهما شيء
من أعمال الوثنية. انتهى المراد منه. وقوله عليه الصلاة والسلام، اشتد غضب الله
على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، بيان للذريعة التي يتوصل بها ومنها إلى اتخاذ
القبور أوثاناً يعبد، إذ معنى اتخاذ القبور مساجد تحرى العبادات عندها من صلاة
ودعاء وقرأة قرآن وذكر وصدقة. وقد علم النبي ﷺ، وهو سيد العلماء والحكماء، أن
تحرى العبادة عندها يؤدي إلى عبادتها. وكان مقتضى الحال أن يقول، اللهم لا تجعل
قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم عبدوا قبور أنبيائهم، أو اتخذوا قبور
أنبيائهم أوثاناً، لكنه عدل عن ذلك فقال (اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.
فما حكمة هذا العدول، والبايغ لا يعدل عن مقتضى الحال إلا لنكته؟ الجواب هو
ما ذكرته آنفاً، من أن العبادة عندها تؤدي إلى عبادتها. وقال البخاري عن

ابن عباس في تفسير قوله تعالى من سورة نوح : (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تفرون
ودا ولا سواعا ولا يفرث ويعوق ولسرا (٢٣) هي اسماء رجال صالحين من قوم
نوح عليه السلام . فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم ان انصبوا الى مجالسهم
التي كانوا يجلسون فيها انصابا وسموها باسمائهم ففعلوا فلم تعبد ، حتى اذا هلك
اولئك ، وانسخ العلم ، عبت . قال ابن كثير ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ،
كالت هذه أصنام تعبد في زمان نوح . وقال ابن جرير بسنده الى محمد بن قيس
ودا وسواعا ويفرث ويعوق ولسرا ، قال : كانوا قوما صالحين ، وكان لهم اتباع
يقعدون بهم ، فلما ماتوا ، قال أصحابهم الذين يقعدون بهم ، لو صورناهم كان
اشوق لنا الى العبادة اذا ذكرناهم فصورهم ، فلما ماتوا ، وجاء آخرون دب اليهم
ابليس ، فقال : انما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدهم . وقال البخاري
بسنده عن ابن عباس في قوله تعالى في سورة النجم : (أفرايتم اللات والعزى
(١٩) قال : كان اللات رجلا يلك السويق للحاج . وقرأ ابن عباس ، اللات بتشديد
التاء ، وكذلك قرأ مجاهد والربيع ، وفسروه بأنه كان رجلا يلك للحجيج في الجاهلية
السويق ، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . وعن أبي واقد الليثي قال : خرجنا
مع رسول الله ﷺ الى حنين ، ونحن حدثاء عهد بكفر ، ولأشركين سدره
يمكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدره ،
فقلنا يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله
ﷺ الله أكبر ، انها الدين ، قائم : والذي نفسي بيده ، كما قالت بنو اسرائيل لموسى
(اجعل لنا الهما كما لهم آلهة قال ، انكم قوم تجهلون (٧، ١٣٨) لتركبن سنن من
كان قبلكم . رواه الترمذي وصححه .

وروى ابن اسحاق عن أبي العالبة قال : لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال

الهرمزان سريرا عليه رجل ميت ، عند رأسه مصحف ، فاخذنا المصحف فحملناه
الى صحر ، فدعا له كعبا فتسخه بالعربية ، فأنا أول رجل قرأه من العرب ، قرأته مثل
ما أقرأ القرآن فقلت لآبي العالبة ، ما كان فيه ؟ قال : سيرتكم واموركم ولحون
كلامكم وما هو كأن بعد . قلت فماذا صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا له بالنهار ثلاثة
عشر قبرا متفرقة ، فلما كان الليل دفناه ، وسويتنا القبور كلها لنعميه على الناس
لا يبدونه ، قلت وما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء اذا تحبست عنهم يردوا
بسريره فيمطرون . فقلت ، من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له ، دانيال ،
قلت : منذ كم وجدتموه مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قال لي فتح المجيد بعد
ذكر ما تقدم ، قال ابن القيم رحمه الله ، ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والألصاق
من تعمية قبره لئلا يفتن به ، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ، ولو ظفر به
المتأخرون لجالدوا عليه بالسيف ولعبدوه من دون الله .

وعنه نافع قال بلغ عمر بن الخطاب ، أن ناسا يأتون الشجرة التي بوبع
تحتها النبي ، فأمر بها فقطعت . أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف . ولما كانت فتنة
الناس بالقبور عظيمة وقع بسببها فساد كبير وشر مستطير في عقائد الدهماء
وأعمالهم ، رأيت أن أرخي العنان ، في هذا الميدان ، لعل الله ينفع بما أكتسبه من
شأن من عباده ويشفي به مرض القلوب ويفتح به أعينا حيا وآذانا صما ، فإنه الكريم
الوهاب ، يرزق من يشاء بغير حساب . روى البخاري ومسلم من حديث عائشة أن
أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسته وأنها بأرض الحبشة وما فيها من الصور ،
فقال أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك
الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله . قال صاحب فتح المجيد بعد إيراد هذا
الحديث ، ف هؤلاء جمعوا بين فتنتين ، فتنة القبور ، وفتنة التماثيل . وروى البخاري

ومسلم عن عائشة قالت : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح نخيصة له على وجهه ، فاذا اغتم بها كشفها فقال - وهو كذلك - لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور انبيائهم مساجد . يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك أبرز قبره ، غير انه خشى أن يتخذ مسجدا . وروى مسلم في صحيحه عن جندب بن عبد الله قال سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول ، أتى أبرأ الى الله أن يكون لى منكم خليلا ، فان الله قد اتخذنى خايلا ، كما اتخذ ابراهيم خيلا ، ولو كنت متخذنا من امنى خيلا ، لا اتخذت ابا بكر خيلا ، الا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور انبيائهم مساجد ، الا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فاني انهاكم عن ذلك . . .

قال صاحب الفتح عقب إيراد هذا الحديث . فقد نهى عنه في آخر حياته . ثم انه لعن - وهو في السياق - من فعله ، والصلاة عندها من ذلك وإن لم يكن مسجد ، وهو معنى قولها ، (خشى أن يتخذ مسجدا) فان الصحابة لم يكونوا لينوا حرل قبره مسجدا . وكل موضع قصد الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدا ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدا . كما قال ﷺ (جعلت لى الارض مسجدا وطلورا) . وروى أحمد بن حنبل من حديث ابن مسعود ، قال رسول الله ﷺ (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد) . وعن ابن عباس قال : لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج . رواه أهل السنن . وفي الباب عن أبي هريرة رواه أحمد والترمذى وصححه . وعن جسان بن ثابت رواه ابن ماجه .

كلام نقيس في فتنه القبور للإمام محمد بن اسماعيل الصنعاني اليمني

قال في كتابه تطهير الاعتقاد من ادران الاحقاد، ما نصه: فان هذه القباب
والمقاهد التي صارت ادظم ذريعة إلى الهرك والاحقاد، وأكبر وسيلة إلى هدم
الاحلام وخراب بنيانه: غالب - بل كل - من يعمرها هم الملوك والسلاطين
والرؤساء والولاة، اما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه، من فاضل
أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ كبير، ويزوروه الناس الذين يعرفونه زيارة
الاموات من دون توسل به ولا هتف باسمه، بل يدعون له ويستغفرون، حتى
ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي من بعدهم فيجد قبرا قد شيد عليه البناء،
وسرجت عليه الشموع، وفرش بالفراش الفاخر، وأرخت عليه الستور، وأقيت
عليه الأوراد والزهور، فيعتقد ان ذلك لنفع أو دفع ضرر، وتأتيه السدنة
يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضر وبفلان النفع، حتى
يفرسوا في جبلته كل باطل، والأمر ما ثبت في الأحاديث النبوية من لعن من
أسرج على القبور وكتب عليها وبني عليها. وأحاديث ذلك واسعة معروفة. فان
ذلك في نفسه مذمى عنه. ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة. انتهى.

قال جامع هذا الكتاب. ومن الأوثان ما يعلق لدفع الضر أو جلب
النفع، من عود وخرز وعظام وودع وغيرها. عن عمران بن حصين أن النبي
ﷺ رأى رجلا في يده حلقة من صفر، فقال، ما هذه؟ قال: من الواهنة.
فقال: أنزعها، فانها لا تزيدك إلا رهنا، فانك لومت وهي عليك ما أفلحت أهدا.
رواه أحمد. قال شارح كتاب التوحيد. قال أبو السمادات: الواهنة. عرق
يأخذ في المنكب وفي اليد كلها، فيوق منها. وفيل هو مرض يأخذ في العضد

وهي تأخذ الرجال دون النساء . نهى عنها لأنه إنما اتخذها على أنها لخصمه من الألم ، وفيه من الألم . انتهى . قال مؤلفه : معنى هذا الحديث أن النبي ﷺ رأى رجلا في يده حلقة من نحاس أصفر جماها في ذراعه ، فقال له ، ما هذا ؟ فقال الرجل لبست هذه الحلقة بسبب مرض الواهنة ، يعني لندلع عنه الألم ، فقال النبي ﷺ ، أنزعها ولا تلبسها فإني لا تزيدك إلا وهنا ، أي ضعفا . وقوله عليه السلام ، فإني لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا دليل واضح على أن من تعلق شيئا لدفع الضر أو جلب الخير لا يفلح أبدا أي لا يتجر من عذاب الله ولا يفوز برحمة الله ، لأنه أشرك بالله . فهو كقوله تعالى : (إِنَّهُ مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) . وليس كذلك ما يفعل من باب التداوي إذا جرى على طريق العلاج المعروف عند الأطباء . وتعليق الحلقة ليس من التداوي في شيء . وروى أحمد والحاكم وصححه وأفره الذهبي عن عقبه بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ (من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له) وروى أحمد أيضا بسنده إلى عقبه بن عامر قال ، قال رسول الله ﷺ : (من تعلق تميمة فقد أشرك) وسبب هذا الحديث أن النبي ﷺ أقبل إليه رهط ، فبايع تسعة وأمسك عن واحد ، فقالوا يا رسول الله ، بايعت التسعة وأمسكت عن هذا ؟ فقال إن عليه تميمة ، فادخل يده فقطعها فبايعه ، وقال : من تعلق تميمة فقد أشرك) . والتميمة خرزة ، والودعة شيء يخرج من البحر كالصدف . والجهال يطلقون ذلك زعماء منهم أنه يحفظ من العين وغيرها من الشرور . وقول النبي ﷺ فلا أتم الله له ، دعاء عليه أن لا يبلغه الله مراده . وقوله ، فلا ودع الله له ، أي فلا جعله في دعة وسكون أو فلا ترك له شيئا يحبه . وروى ابن أبي حاتم عن هذيفة أنه رأى رجلا في يده خيط من الحصى فقطعه وتلا قوله تعالى

في سورة يوسف: وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (١٠٦). وفي رواية عن حذيفة، أنه دخل على مريض بموده، فليس عضده، فإذا فيه خيط، فقال ما هذا؟ قال شيء رقى لي فيه فقطعه! وقال: لو مت وهو عليك ما صليت عليك.

قال مؤلف هذا الكتاب: وفيه دليل على أن ذلك كفر. قال شارح الفتح: وأما التائم والخيط والحروز والطلاسم ونحو ذلك، ما تعلقه الجهال، فهو شرك يجب إنكاره وإزالته بالقول والفعل، وإن لم يأذن فيه صاحبه. وروى البخاري ومسلم عن أبي بشير الأنصاري، أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولا. أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو فلادة إلا قطعت). والوتر، هو ما يربط بين طرفي الفوس وكانت العرب إذا اخلواق الوتر، أي بلى، علقوه في أعناق الدواب اعتقادا منهم أنه يدفع عن الدابة العين. والقلادة ما يعلق في العنق. وإنما أمر النبي بقطعها، لأنها شرك، فهو من تفسير المنكر بالبد. قال في فتح المجيد: قال البغوي في شرح السنة: تأول مالك أمره عليه الصلاة والسلام بقطع القلائد على أنه من أجل العين. وذلك أنهم كألوا بشدون تلك الأوتار والتائم والقلائد ويعلقون عليها العوذ، يظنون أنها تعصمهم من الآفات. فنهاهم النبي ﷺ عنها وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئا.

وروى أبو داود عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: إن عبد الله رأى في عني خيطا، فقال: ما هذا؟ قلت: خيط رقى لي فيه، قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله لا تغنياء عن الشرك. سمعت النبي ﷺ يقول: (إن الرقى والتائم والتولة شرك) فقلت: لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي، فإذا رقى سكتت: فقال عبد الله: إنما ذاك عمل الشيطان، كان

بسنخها بيده ، فاذا رقى كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولى كما كان رسول الله
 يقول : اذهب الباس ، رب الناس ، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك
 شفاء لا يبادر صقما) . ورواه ابن ماجه وابن حبان ، والحاكم وقال صحيح
 وأقره الذهبي . انتهى من فتح المجيد . والرقى جمع رقية بضم الراء فيها ، وهى
 ما يقرأ على المريض فان لم يكن فيها شرك ولا بدعة فهى جائزة . وقد ورد
 من ذلك فى السنة ما يشق ويكفى . والتولة ، هو ما يفعله الساحر ليجب المرأة إلى
 زوجها أو بالمعكس . وقال الحافظ : التولة - بكسر المشاة وفتح الواو واللام
 مخففا - شىء كانت المرأة تجاب به محبة زوجها ، وهو ضرب من السحر . وكان
 من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى . كذا فى
 فتح المجيد . انتهى .

وقوله تعالى : إني أراك وقومك فى ضلال مبين . حكاية عن ابراهيم ، انه
 أعلن أن آباء وقومه خارجون عن الحق بسبب شركهم . وتقدم تفصيل ذلك
 فى آيات سورة مريم وفى آية الممتحنة وآيتى الزخرف . وقد أمرنا الله أن نقضى
 بإبراهيم فتبرا من المشركين ولو كانوا أولى قربي ونكفر بهم . وقال تعالى فى
 سورة الممتحنة : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا
 لقومهم إنا براء منكم وما تعبدون من دون الله ككفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم
 العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ، إلا قول ابراهيم لأبيه لا استغفرن
 لك وما أملك لك من الله من شىء (٤) وقال تعالى فى سورة التوبة : (وما كان
 استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له انه عدو لله تبرأ
 منه ، ان ابراهيم لأواه حلیم (١١٤) فظهر إن ابراهيم كان يستغفر لأبيه ما دام
 أبوه حيا ، فلما مات على الشرك تبرأ منه وترك الاستغفار له ، لأن الاستغفار

للمشركين والدعاء لهم بعد موتهم على الشرك لا يجوز . قال تعالى في سورة التوبة
 (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى من بعد
 ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) (١١٣) . وروى البخارى ومسلم عن سعيد بن
 المسيب عن أبيه قال لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ ، وعنده
 عبد الله بن أمية وأبو جهل فقال له ، يا عم ، قل ، لا إله إلا الله ، كلمة أحاج
 لك بها عند الله ، فقال له أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبي ﷺ ،
 فأعاد . فكان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول . لا إله
 إلا الله . فقال النبي ﷺ ، لاستغفرون لك ما لم أنه عنك . فأنزل الله عز وجل ،
 ما كان للنبي والذين آمنوا ، الآية .

ثم قال تعالى : وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض . اى كما ارينا
 ابراهيم دلائل التوحيد ووجوب البرائة من أهل الشرك ، وإن كانوا أولى قرى ،
 نرى ملكوت السموات والارض ، اى اسرار ملك الله وحججه على خلقه ليزداد
 علما وليكون من الموقنين العالمين علم اليقين بأن الله هو الحق وأن ما يدعى من
 دونه هو الباطل . وإن كان طالما بذلك فقد قال الله تعالى لبيه محمد ﷺ في
 سورة طه : (وقل رب زدنى علما) (١١٥) . وقال تعالى في سورة البقرة : (مخاطبا
 لبيه ابراهيم حين سأله أن يريه كيف يحيى الموتى) (قال : أولم تؤمن قال بلى ،
 ولكن ليطمئن قلبى) (٢٦١) . فلما جن عليه الليل النخ . اى لما جاء الليل وصتر
 بظلامه الاشياء ، ولم يبق إلا ضوء الكواكب والقمر ، رأى ابراهيم كوكبا متهرا ،
 فقال على سبيل المناظرة لقومه ، أو على سبيل الاستدلال ، وكان صغيرا فى سن
 المراهقة ، هذا ربى اى الهى الذى اعبدته وأنشفع به إلى خالق السموات والارض ،
 فلما غاب قال لا أحب الافلين ، اى المتقلبين المتغيرين . فلما رأى القمر بازغا قال

هذا ربي أى الهى الذى اتخذه واسطة فى قضاء حاجاتى عند رب العالمين .
 فلما غاب ، قال لا أحب الهما يتغير ويزول . فلما رأى الشمس طالعة ،
 قال هذا الطالع الهى ، هذا أكبر مما تقدمه وأكثر ضوءا ، وهو يعطى
 حرارة ودفئا إذا لم ينتقل . فلما غربت الشمس ولم تستطع البقاء عن موعد
 غروبها المحدد لها تبين ان الاجرام السماوية التى كان يعبدها قوم ابراهيم
 وبنون لها الهياكل ، هى مخلوقات مسخرة لانية لها ولا قصد فلا معنى
 لعبادتها . فقال حينئذ : يا قوم انى برىء مما تشركون من الآلهة المخلوقة
 المسخرة العاجزة ، انى وجهت وجهى ونفسى وأسلمت قلبى لله الذى خلق
 السماوات والارض خنيفا مبائنا لجميع الاديان والملل ، ما عدا الاسلام .
 روى مسلم فى صحيحه عن على بن أبى طالب عن النبي ﷺ : أنه كان إذا قام
 إلى الصلاة يقول : وجهت وجهى لله الذى فطر السماوات والارض خنيفا وما أنا من
 المشركين . إن صلاتى ونسكى ومحيمى ومماقى لله رب العالمين ، لا شريك له ،
 وبذلك أمرت ، وأنا من المسلمين . اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي
 وأنا عبدك ، ظلمت نفسى وأعترفت بذنبي ، فاغفر لى ذنوبى جميعا ، انه لا يغفر
 الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف
 عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك والخير كله فى يديك ،
 والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك . وفى
 رواية لمسلم : أن ذلك فى صلاة الليل .

ثم قال تعالى : وحاجه قومه قال : أتحتاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف
 ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا ، وسع ربي كل شىء علما ، أفلا تتذكرون .
 (٨١) وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم

سلطانا، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون (٨٢) الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون (٨٣) وتلك حجبتنا آياتناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء، إن ربك حكيم عليم (٨٤).

المفردات

المحاجة، أن يطلب كل من المتحاجين حجة على دعواه. والهداية من الله، خلق الهدى في القلب، ومن غيره، الارشاد والدلالة، فلا تنافي بين قوله تعالى في سورة الشورى: وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم (٥٣) وقوله تعالى في سورة القصص: إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين (٥٧).

المعنى العام

قوله سبحانه: وحاجه قومه، يعنى لما استدل إبراهيم على بطلان عبادة الكواكب والقمر والشمس وغيرها مما يعبد من دون الله وتبرأ من عبادتها ووجه وجهه للذى فطر السماوات والأرض وحده لا شريك له، أخذ قومه يجادلونه، فقال لهم، أتجادوننى فى توحيد الله، والحال انه سبحانه هدانى إليه، فخوفوه بأهتكم وحذروه من نعمتها، فقال: لا أخاف ما تشركون به، لكن ان شاء ربي شيئاً يصيبنى، فانه سيصيبنى بمشيئته وتقديره. وأما أهتكم فانها لاتضر ولا تنفع ولا تشفع ولا تدفع. وكيف أخاف ما أشركتم بالله من أهتكم المخلوقين العاجزين، ولا تخافون أتم مع أنكم أشركتم بالله القوى العزيز الذى بيده ملكوت كل شىء، وهو المتصرف فى كل شىء، لا يكون فى خلقه إلا ما أراد، أشركتم به ما لا حجة لكم فى عبادته من الآلهة التى تخيلتموها وتعلقتم بها سفاهة وجهلاً وافتراء، فأى

الفريقين أجدوا بالأمن من عذاب الله إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا وأخلصوا العباداة لله أم الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى . قال الله تعالى : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أى لم يخلطوا إيمانهم بشرك ، أولئك لهم الأمن فى الدنيا والآخرة من عذاب الله هم مهتدون ، والمشركون فى ضلال مبين . ومثل هذا ما حكى الله سبحانه عن هود وقومه فى سورة هود : (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين (٥٣) . قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين (٥٤) إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال أنى أشهد الله وأشهدوا أنى برىء مما تشركون (٥٥) من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون (٥٦) أنى توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم (٥٧) فان تولوا فقد أبلغناكم ما أرسلناك به اليكم ويستخاف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً ، ان ربي على كل شىء حفيظ (٥٨) ومن عادة المشركين فى كل زمان اذا عجزوا عن الحججة والبرهان أن يخوفوا الموحدين من نقمة آلهتهم ، والموحد لا يخاف الا الله ، لأن تلك الآلهة ، إن كانت راضية بعبادة المشركين لها فهى شياطين ، وقد قال الله تعالى فى سورة النساء : (ان كيد الشيطان كان ضعيفاً (٧٧) وقال تعالى : فى سورة النحل : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم (٩٩) انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (١٠٠) أما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (١٠١) وان كانت أرواح الصالحين أو الملائكة أو أرواح الأنبياء فانها لا ترضى بعبادتهم ، بل تعادىهم وتكون عليهم ضدأ كما قال تعالى فى سورة مريم : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا .

كلا سيكفرون بعبادتهم ويكفرون عليهم ضداً (٨٢ ، ٨٣) . وقال تعالى في سورة ياسين : (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون (٧٥ ، ٧٦) وقال تعالى في سورة الأحقاف : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم من دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٧ ، ٦) وقال تعالى في سورة فاطر : (ذالكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبتك مثل خبير (١٤ ، ١٥) فالمشركون إذا حققت تجدهم لا يعبدون إلا أوثاناً ، كالقباب المشيدة والأشجار الباسقة والمياه والأحجار الموضوع بعضها على بعض ، لكنهم يتخيلون أن لهذه الأوثان أرواحاً تتصل بها ، وهي أرواح قوم صالحين يقضون حاجات من يشد الرحال إلى تلك الأوثان المسماة بأسمائهم ويدبح لها الذبائح ويقرب لها القرابين . فقد كشف الله حالهم بقوله في سورة النجم . (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى (٢٤) وقوله تعالى : أفلا تتذكرون ، تنبيه على أن من استعمل عقله وتدبر هذه المحاجة أدنى تدبر وترك هواه واستعان بالله انكشف له الحق وزال عنه الباطل . قال تعالى مشيراً إلى احتجاج إبراهيم على المشركين : وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء من الأنبياء وأتباعهم السائرين على منهاجهم بالتوحيد والتقوى ، إن ربك حكيم في شرعه وفعله ، عليم بجميع أحوال خلقه .

ثم قال تعالى : ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من

قبل، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وكذلك نجزي
المحسنين (٨٥) وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس، كل من الصالحين (٨٦) واسماعيل
واليسع ويونس ولوطا، وكلا فضلنا على العالمين (٨٧) ومن آباؤهم وذرياتهم
واخوانهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم (٨٨) ذلك هدى الله يهدى
به من يشاء من عباده، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون (٨٩) أولئك
الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة، فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما
ليسوا بها بكافرين (٩٠) أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده، قل لا أسألكم
عليه أجراً، إن هو إلا ذكرى للعالمين (٩١).

المعنى العام

قوله تعالى: **ووهبنا له اسحاق ويعقوب**، إلخ. ذكر هبة الله له اسحاق،
وهو ابنه على كبر سنه كما قال تعالى في سورة هود: (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم
بالبشرى، قالوا سلاما، قال سلام، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ (٧٠) فلما
رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة، قالوا لا تخف، إنا أرسلنا
إلى قوم لوط (٧١) وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق، ومن وراء
اسحاق يعقوب (٧٢) قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا، ان هذا
لشيء عجيب (٧٣) قالوا أنعجبين من أمر الله، رحمة الله وبركاته عليكم أهل
البيت انه حميد مجيد (٧٤) وهذه الهبة مكافأة من الله تعالى لابراهيم، لتحقيقه
توحيد الله ومحاجته للشركين وبرائه منهم وكفره بهم واعلان عداوتهم واعتزالهم
كما قال تعالى في سورة مريم: (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق
ويعقوب، وكلا جعلنا نبيا. ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا
(٥١،٥٠) ومن المعلوم أن الولد على كبر السن قررة عين للوالدين، لاسيما وقد بشرهما الله

بأنه سيكون نبيا وسيلد نبيا وهو يعقوب والظاهر أن يعقوب ولد في حياة ابراهيم وسارة، لأن مقتضى وهبنا له يدل على أنه رآه وأنه ولد في حياته . فبشارة الشيخ وزوجه بعد اليأس والكبر بولد يكون نبيا وبمفيد يكون نبيا كذلك ، نعمة عظيمة يسر بها سرورا بالغ الغاية كما قال تعالى في سورة الفرقان في الثناء على عباد الرحمن :

(والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما (٧٥) وعطف يعقوب على اسحاق ، وان كان اسحاق ابنا ويعقوب حفيداً له ، لأن ابن الابن ابن لغة وشرعا . وقوله تعالى كلا هدينا ، أى هدينا كل واحد منهما وهدينا نوحا قلبها وقبل والدهما ابراهيم . ومن ذريته ، أى نوح ، هدينا داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك الجزاء الذى جزينا ابراهيم تجزى المحسنين من الأنبياء والصالحين في كل زمان ومكان . وإنما عاد الضمير في ذريته على نوح لما سيأتى من ذكر لوط ، لأنه ليس من ذرية ابراهيم ، وإنما هو ابن أخيه . ثم قال تعالى عاطفا على من تقدم ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس ، كل من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين بالنبوة . وهدينا من نشاء من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم السالكين على منهاجهم ، واجتبتيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ، وهو طريق هدى توحيد الله وطاعته ، ذلك الهدى الذى هديناهم هدى الله يهدى به من يشاء من عباده . ولو أشركوا بالله شيئا مع علو منزلتهم لحبط عنهم ما كانوا يعملون من الأعمال الصالحة ، لكنهم معصومون من الكفر والمعاصى . وفي هذا وعيد شديد لمن أشرك بالله . ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الزمر : (ولقد أوحى اليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين (٦٦ ، ٦٧) وتعليق الشرط على المحال واقع في القرآن وفي

سائر الكلام . قال تعالى في سورة الزمر : (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار (٥) . ثم قال تعالى مشيراً الى من ذكر من الانبياء : اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم ، وهو الفهم عن الله ، والنبوة ، فان يكفر بها هؤلاء ، يعنى أهل مكة ، فقد وكلنا بها في سابق العلم الالهى قوما ليسوا بها بكافرين ، وهم المهاجرون والانصار ومن جاء بعدهم من المؤمنين الصادقين ومن يجىء الى يوم القيامة ، ثم قال تعالى : أمرا نبيه محمدا ﷺ وأمه تبع له ، اولئك المذكورون الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، أى لا تتبع إلا هداهم ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . ثم قال تعالى : قل يا محمد لا أسألكم عليه أى القرآن أجرا كيفما كان ، ان هو أى التذكير بالقرآن إلا ذكرى أى موعظة وتذكيرة للعالمين كلمهم ، بخلا فما تؤخذ عليه أجره فانما يكون لمن أعطى الأجرة .

ثم قال تعالى : وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتحفون كثيراً ، وعلمتم ما لم يعلموا أنتم ولا آباءكم ، قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون (٩٢) .

المعنى العام

ونزل فىمن جحد الوحي والنبوة من الكفار ، وما قدروا الله حق قدره ، أى ما عظموه حق تعظيمه حين قالوا ما أنزل الله على بشر شيئاً من الوحي . ويقال : ان بعض كفار اليهود قال ذلك ، ويدل عليه قوله تعالى : قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ، وهو التوراة نورا ينور ظلمات الجهل ، وهدى للناس من الضلال يجعلونه أيها اليهود قراطيس أى صحفاً تنقلونها من الكتاب

الأصلى تبدونها تظهرونها وتخفون كثيرا ، وهو ما لا يناسب أهواكم وأغراضكم الحسيسة ، وهذا شأن علماء السوء . وعلمتم على لسان محمد ما لم تعلموا أنتم ولا آباءكم الذين كانوا أعلم منكم . ولما كان جواب الاستفهام متعينا لا مندوحة لهم عنه قال تعالى : قل الله أنزله ، ونحن مؤمنون به وبسائر كتب الله ، سواء أقررت أم جحدتم . ثم أتركهم في أباطيلهم يلعبون ويتخبطون ، فقد أبلغتهم وبرئت ذمتك .

ثم قال تعالى : وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون (٩٣) .

المنى العام

وهذا القرآن كتاب مبارك لكل من تلقاه بالايمان والعمل به واتخاذه إماما وحكما ، مصدق الذى بين يديه ، أى تقدمه من الكتب السماوية ، وهو آخر الكتب وأكملها لبلغه وتنذر به أم القرى مكة ومن حولها الى نهاية المعمور من الأرض . والذين يؤمنون بالآخرة من أهل الكتاب وغيرهم ويخافون الله يؤمنون به . وهم على صلاتهم يحافظون ، فان المحافظة على الصلاة متلازمة مع الايمان بكتب الله ورسوله .

ثم قال تعالى : ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون (٩٤)

ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون (٩٥) .

المفردات

غمرات الموت ، شدائده . خولناكم ، أعطيناكم .

المعنى العام

قوله تعالى : ومن أظلم الخ . أى لا أحد أكثر ظلماً وأعظم جرماً من رد آيات الله وكذب بها مع وضوحها ، أو ادعى أنه أنزل عليه الوحي كذبا وزورا ، أو زعم أنه يستطيع أن يؤلف كتاباً مثل كتاب الله كما قال الكافرون الأولون والآخرون ، قال تعالى فى سورة الأنفال حكاية عنهم : (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين (٣٢) . وقد افترى على الله الكذب خلق من المتنبئين والدجاجلة والزنادقة من زمان مسيلة الكذاب الى زماننا هذا ففضحهم الله وظهر كذبهم . ولم يتوصوا الى أغراضهم الخسيسة التى لأجلها كذبوا على الله ، فبعضهم قتل وبعضهم تاب وبعضهم جله الحزى والاحتقار . ثم قال تعالى : ولوترى اذ الظالمون ، أى الكافرون فى غمرات الموت ، شدائده وسكراته ، وقد ظهرت لهم الملائكة لقبض أرواحهم مهانة معذبة كما قال تعالى فى سورة الأنفال : (ولوترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد (٥١ ، ٥٢)) وتقول لهم الملائكة تعنيفاً وتوبيخاً أخرجوا أنفسكم من اجسادكم ، فقد آن لها أن تخرج الى لعنة الله وعذابه . اليوم تجزون

عذاب الهون ، أى عذابا فيه اهانة لكم ، لأنكم كنتم تستكبرون عن قبول آيات الله وتكذبون على الله وتنسبون له من الأقوال والشرائع ما لم يأذن به . ويقول الله لهم لقد جئتمونا منفردين عن أهلكم وأنصاركم وأموالكم فقراء حقراء كما خلقناكم أول مرة عند ما خرجتم من بطون أمهاتكم تزكتم وراءكم جميع ما رزقكم الله من أهل وأموال ، فأين شركاؤكم الذين زعم أنهم ينصرونكم وينجوكم من عذاب الله ، وأين اخوانكم الذين كنتم تتعاونون معهم على الكفر والمنكرات لقد تشتت شملكم وتقطع ما بينكم من الأسباب . كما قال تعالى فى سورة المؤمنین (فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون (١٠٢)) وقال تعالى فى سورة العنكبوت : (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين (٢٦)) وقوله تعالى ، وذل عنكم ما كنتم تزعمون ، أى بطل وتلاشى ما كنتم تعتقدون فى الدنيا من شفاعة شركاءكم ونصرة اخوانكم .

ثم قال تعالى : إن الله فلق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأتى توفكون (٩٦) فلقى الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم (٩٧) .

المفردات

الفلق شق الشيء وابانة بعضه عن بعض . والحب معروف ، كحب الحنطة والشعير والذرة وما أشبه ذلك . النوى ، جمع نواة ، وهو الجسم الصلب الذى يوجد فى داخل التمر وغيرها من الثمرات ذوات النوى .

المعنى العام

لما قرر سبحانه وتعالى توحيدته في أول السورة وما بعده أحسن تقريره ،
 وبين رسالة الرسل أحسن بيان ، ذكر هنا بعض الأدلة على توحيدته وإفراجه
 بجميع أنواع العبادة ، فقال : إن الله هو الذى شق الحبة وأخرج منها السنبله ،
 وشق النواة وأخرج منها الشجرة ، يخرج الحى ، وهو النبات والشجر ، من
 الميت ، وهو الحب والنوى . ومخرج الميت ، وهو الحب والنوى من الحى ، وهو
 الزرع والشجر ، فإن الزرع والشجر ينمو ويتحرك فهو حى ، والحب والنوى لا ينمو
 ولا يتحرك ، فهما ميتان . وكذلك ما سواهما ما يتصف بالحياة والموت ، كأخراج
 المؤمن من الأب الكافر وإخراج الولد الكافر من الأب المؤمن ، وإخراج الولد
 العالم من الأب الجاهل والولد الجاهل من الأب العالم ، والفرخ من البيضة ،
 والبيضة من الدجاجة . ذلكم الله ربكم ومعبودكم الحق لا اله إلا هو ، ولا معبود
 سواه ، فكيف تصرفون وتضلون بعبادة غيره من المخلوقين العاجزين ، الذين
 لا يملكون لكم دفعا ولا نفعا ، ذلكم هو الضلال البعيد . ثم قال تعالى فالتى
 الاصباح ، أى هو الذى يشق ظلام الليل من الصبح فىأتى النهار بضياءه بشمسه ،
 صالحا لحركات الناس فى طاب أرزاقهم وقضاء ما ربهم . قال تعالى : وجعل الليل
 سكنا . أى صالحا للسكون والراحة . والانسان وغيره من الحيوان محتاج الى
 الحركات والسكون . وهو الذى جعل الشمس والقمر يجريان بحساب دقيق ونظام
 جميل لا يختل أبدا ، وقد ركل ذلك بعلمه ، فجاء وجوده حسب تقدير ، بلا زيد
 ولا نقص ، ذلك تقدير العزيز الغالب القوى ، العليم بكل شىء علما لا يشاركه فيه
 أحد ، فمن أطاعه ووحده واتبع هداه عز وسعد ، ومن نازعه فى عزته وعلمه ذل
 وذل وخسر وخاب .

ثم قال تعالى: وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر
قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون (٩٨) وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة،
فمستقر ومستودع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون (٩٩)

المعنى العام

ثم قال تعالى، وهو الذى جعل، أى خالق لكم النجوم لتهتدوا بها فى طريقكم
برا أو بحرا على الوجهة الصحيحة للبلد الذى تقصدونه، فان المسافر يستدل
بحركات الشمس فى النهار وحركة القمر والنجوم فى الليل، فيعرف بذلك طريقه
ويستضيء بضوئها، ثم إن النجوم زينة للسماء كما قال تعالى: فى سورة فصلت
وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم (١٣) قال ابن كثير
قال بعض السلف من اعتقد فى هذه النجوم غير ثلاث، فقد أخطأ وكذب على
الله سبحانه، أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوما للشياطين، ويهتدى بها فى
ظلمات البر والبحر. وفى فتح المجيد، قال البخارى: قال قتادة: خلق الله هذه
النجوم ثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فن تأول
فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه. وتكلف ما لا علم له به. وفيه أيضا قال
شيخ الاسلام رحمه الله تعالى: التنجيم، هو الاستدلال بالأحوال الفلكية، على
الحوادث الأرضية.

وقال الخطابى: علم النجوم المنهى عنه، هو ما يدعيه أهل التنجيم من
علم الكوائن والحوادث التى ستقع فى مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح
ومجيء المطر، وتغير الاسعار، وما فى معناها من الأمور التى يزعمون انها تدرك
معرفةا بسير الكواكب فى مجاريها، واجتماعها وافتراقها، يدعون أن لها تأثيرا

في السفليات . وهذا منهم حكم على الغيب ، وتعاطى لعلم قد استأثر الله به ، ولا يعلم الغيب سواه . وفي رواية للخطيب من قتادة . وإن ناسا جملة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة : من أعرس بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا .

ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والطويل والقصير ، والحسن والدميم ، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب . انتهى .

قال تقي الدين : قوله : وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر الخ إشارة إلى أن العرب لم تكن تقتصر على سؤال الكهنة والمنجمين والعرافين عن الأمور المغيبة ، بل كانت تطلب علم المغيبات بأمر أخرى ، منها : التيمن بالدواب والطيور تزجرها ، أي تطردها ، فإن سارت الدابة أو طار الطائر إلى جهة اليمين تيمنت واستبشرت وظنت خيرا ، وإن كان ذلك إلى جهة الشمال تطيرت وتشاءمت وتوقعت شرا . وكانت تطلب علم الغيب أيضا بطرق الحصا . قال في مجمع البحار : في شرح حديث ، الطرق من الجبت ، هو الضرب بالحصا التي تفعله النساء ، وقيل هو الخط في الرمل . أقول وقد تعلمت شيئا من خط الرمل بقصد الاطلاع فوجدته لا يمت بأي صلة إلى علم المغيبات ، وإنما هو حيلة يحتال بها البطالون على أكل أموال الناس بالباطل . وأكثر من ينخدع لهم النساء والجهال ، ولهم في ذلك مهارة عجيبة ، فإن لإشكال الرمل ، منها ما سمي باسم يدل على المرغوب ، كالطريق والاحيان الفارح والنصرة والجماعة ، ومنها ما سمي باسم يدل على المخوف ، كالأحيان الانكيس والحجرة وهي ستة عشر شكلا أصلها أربعة . فإذا ظهر شكل يدل على الخير كالجماعة مثلا ، يقول العراف للسائل

لعلمك تسأل عن شخص غائب عنك . أ هو كذلك ، فيقول هذا السائل المغفل أو السائلة المغفلة نعم يا سيدي ! رحم الله من علمك . ابني غاب عني منذ ثلاث سنين وتبكي السائلة . فيقول العراف أبشرى فقد خرج لك شكل الجماعة ، فستجتمعين به عن قريب . وإذا خرج شكل يدل على الشر ، يقول أن المسئول عنه في شدة إما في مرض أو سجن ، أو حزن ، ويعطى ذلك إجمالاً ، فيعطيه السائل أو السائلة التفاصيل ، وهو لا يشعر ، فيعود العراف فيرد عليه تلك التفاصيل ويزخرقها بأكاذيب يزيدهما من عنده ، فلا يشك هذا المغفل أو هذه المغفلة ان ذلك العراف أو تلك العرافة قد اطلعا على أحواله وتوصلا إلى علم الغيب بتلك النقط أو الخطوط . وهذا من فشو الجهل والغباوة ، وما أحسن ما قال الشاعر :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقوله تعالى : قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، أى بينا العلامات والدلائل على كمال قدرتنا واتقان تدبيرنا ، ولا ينتفع بذلك إلا الذين أوتوا العلم ولم تعمهم أهواؤهم عن رؤية الحق . قوله تعالى : وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، الآية ، أى خلقكم من نسل آدم كما قال تعالى فى أول سورة النساء (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) قال أكثر المفسرين من السلف ، فستقر ، استقرار النطفة فى أصلاب الرجال ومستودع ، ابداعها فى أرحام النساء حتى وقت الولادة ، قد فصلنا الآيات ، أى بيناها لكل من يفهم ويعى .

ثم قال تعالى : وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا

أمر وينعه ، ان في ذلكم آيات لقوم يؤمنون (٩٩) .

المفردات

الخضر، صفة مشبهة من خضر كقروح ، فهو أخضر وخضر . والمراد به كل نبات أخضر كالزروع والقول والبقول ، قنوان جمع قنو ، وهو العذق ، ويسمى باللغة المغربية عرجونا . ينعه ، نضجه ، ينعت التمرة وينعت نضجت .

المعنى العام

سأنقل تفسير هذه الآية من تفسير الخازن ، لأنه أجاد في تفسيرها ، وليس عندي ما أزيد عليه . قال خازن : (وهو الذي أنزل من السماء ماء) يعني المطر (فأخرجنا به) يعني بالماء الذي أنزلناه من السماء (نبات كل شيء) يعني كل شيء ينبت وينمو من جميع أصناف النبات (فأخرجنا منه حضرا) يريد أخضر ، والأخضر هو جميع الزروع والبقول الرطبة (نخرج منه حبا متراكبا) يعني نخرج من ذلك الأخضر سنابل فيها الحب يركب بعضه فوق بعض ، مثل سنابل القمح والشعير والارز والذرة وسائر الحبوب . وفي تقديم الزرع على النخل دليل على الأفضلية ، ولأن حاجة الناس إليه أكثر ، لأنه القوت المؤلف . (ومن النخل من طلعا قنرات دائية) يعني من ثمرها ، يقال أطعت النخلة ، إذا أخرجت طلعا ، وطلعا كقنرات دائية ، يقال أطعت النخلة ، وإذا أخرجت طلعا ، وهو ما يكون في قلب الطلع ، والطلع أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان ، يكون فيه العذق ، فاذا شق عنه كيزانه سمى عذقا وهو القنو ، وجمعه قنوان ، مثل صنو وصنوان دائية ، أي قريبة التناول ، ينالها القمام والقاعد . وقال الضحاك قصار ملتصقة بالأرض . وفيه اختصار وحذف

تقديره ، ومن النخل ما قنوانها دانية قريبة ، ومنها ما هي بعيدة عالية . فاكثف يذكر القرية عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولأنها أسهل تناولا من البعيدة ، لأن البعيدة تحتاج الى كلفة . (وجنات من أعناب) يعنى وأخرجنا من ذلك بساتين من أعناب . (والزيتون والرمان) يعنى وأخرجنا شجر الزيتون وشجر الرمان . (مشتبها) قال قتادة ، مشتبها ورقها ، مختلفا ثمرها ، لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان (وغير متشابه) يعنى ومنها غير متشابه في الورق والطعم . واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع . وإنما قدم الزرع على سائر الأشجار ، لأن الزرع غذاء ، والثمار فواكه ، والغذاء مقدم على الفواكه وإنما قدم النخل على غيرها ، لأن ثمرتها تجرى مجرى الغذاء ، وفيها من المنافع والخواص ما ليس في غيرها من الأشجار ، وإنما ذكر العنب عقب النخلة لأنه من أشرف أنواع الفواكه . ثم ذكر عقبه الزيتون ، لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة في الأكل وسائر وجوه الاستعمال . ثم ذكر عقبه الرمان لما فيه من المنافع أيضا لأنه فاكهة ودواء (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) يعنى وانضجه وإدراكه ، والمعنى انظروا نظر استدلال واعتبروا كيف أخرج الله هذه الثمرة الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكشيفة اليابسة ، وهو قوله تعالى : (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يعنى أن الذى أخرج هذا النبات وهذه الثمار قادر على أن يحيى الموتى ويبعثهم . وإنما احتج الله عليهم بتصريف ما خلق ونقله من حال إلى حال ، وهو ما يعدونه قطعاً ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها وإخراج سائر أنواع النبات والثمار منها وإذ لا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى ليبين أنه تعالى كذلك قادر على أن يحييهم بعد موتهم ويبعثهم يوم القيامة . فاحتج عليهم بهذه الأشياء ، لأنهم كانوا ينكرون البعث .

ثم قال تعالى : وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات
 بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون (١٠٠) بديع السماوات والأرض أنى يكون
 له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم (١٠١) ذلكم
 الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل (١٠٢)
 لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير (١٠٣) .

المفردات

خرقوا ، اختلقوا وكذبوا . بديع السماوات والأرض ، منشئهما على غير
 مثال سابق ، اللطيف ، العالم بدقائق الأمور المحسن بما لا تدركه الحواس من
 البر والخير ، فعلمه وبره بلغا فى الدقة الى حد يخفى على المخلوقين . الخبير ، العالم
 بواطن الأمور .

المعنى العام

وجعلوا ، أى المشركون لله شركاء عبدهم معه الجن ، وقد أخبر الله فى
 مواضع متعددة من كتابه العزيز أن البشر يعبدون الجن ، وأنكر ذلك عليهم
 أشد الانكار ومن ذلك قوله تعالى فى سورة النساء (إن يدعون من دونه إلا
 أناثا وان يدعون إلا شيطانا مريدا . لعنه الله ، ١١٧ ، ١١٨) وقال تعالى فى
 سورة الاعراف (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ، انهم اتخذوا الشياطين
 أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ، ٣٠) وقال تعالى فى سورة الفرقان
 (ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء
 أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك
 من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا .

فقد كذبوكم بما تقولون ، فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩)
وقال تعالى في سورة يس (ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا
الشیطان ، انه لكم عدو مبين . وأن اعبدونی هذا صراط مستقیم ، ٦٠ ، ٦١)
وقال تعالى في سورة الجن (وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن
فزادوهم رهقا ، ٦) . وعبادة الانس للجن شائعة في كل زمان . وكثير من
الدجاجلة رجالا ونساء يشتملون خوف الانس من الجن فينصبون لهم الجبائل
ويبتزون أموالهم ويفسدون عقولهم ودينهم ، فكلما وجد الدجال مريضا أو مريضة
أو امرأة عاقرا أو لا تلد إلا الاينك ، أو يموت اولادها يفتح الكتاب فيجد فيه
بزعمه أن لذلك الشخص تابعا من الجن ، وهو السبب في كل ما يصيبه ، ويقول
له ، سأعمل لك نشوة وأخلصك من هذا العفريت فهلم ذبيحة ، ان رأى أنه غنى
يفرض عليه كبشا سمينا ، وان رأى انه فقير يأمره باحضار ديك سمين أحمر أو
أسود أو غير ذلك من الألوان ، فيذبحه لغير الله شركا و يأمره أن يطبخ جزءا
حقيرا منه كراسه بدون ملح وبرش ماء ، في أركان البيت للجن الساكنين به ، واذا
بنى أحد بيوتا جديدة لا يستطيع أن يسكنه إلا إذا ذبح شاة لسكان المكان ، يعنى
الجن . وترى النساء يخفن من المرور على الرماد وصب الماء في الليل ، وهذا
كله من الشرك وعبادة غير الله ، قال الله تعالى في سورة آل عمران (انما ذلكم
الشیطان يخوف أوليائه . فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين ، ١٧٥) . وقال
تعالى في سورة النحل (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .
إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين
يتولونه والذين هم به مشركون ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠) وقد تحقق بالمشاهدة أن
الصرع مرض من امراض الاعصاب ، لا علاقة له بالجن ، عن عطاء بن أبي رباح

قال : قال لي ابن عباس ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ فقلت بلى ! قال هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ « فقالت أنى أصرع وإنى أتكشِف فادع الله تعالى لي قال إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك فقالت أصبر فقالت إنى أتكشِف فادع الله إن لا أتكشِف فدعا لها « متفق عليه . بل يمالج بالأدوية فتتوقف نوباته ، وإن كان المريض صغير السن يشفى شفاء تاماً بإذن الله . وهذا مقتضى قول النبي ﷺ « تداووا يا عباد الله ، فإن الله ما أنزل داء إلا أنزل له دواء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله » رواه أبو داود وغيره . هكذا يقول الأطباء المعاصرون وقال ابن القيم رحمه الله هو نوعان نوع من مرض الأعصاب ونوع من الجن والله أعلم . والخوف من الجن سبب لأمراض كثيرة ، فكل صبي ينشأ على ذلك ويسمع العجائز تحكى حكايات الجن وتعرضهم لبني آدم ، يكون مريض الدماغ عرضة للجنون ، ويبقى معه ذلك الخوف إلى أن يصير رجلاً فلا يستطيع أن يدخل بيتاً مظلماً ، فضلاً عن أن ينام فيه وحده ، وذلك ينافى الشجاعة والتوكل على الله والثقة به ، وهذه صفات المسلم الذى حسن إسلامه وصح إيمانه . وأى رجل يخاف من الجن ولا يستطيع أن يغشى الأماكن المظلمة أو يبيت فيها وحده لا يستطيع أن يجاهد فى سبيل الله ، لأنه ليس له رجولة . وقد قال النبي ﷺ « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق » وفى صحيح البخارى أن النبي ﷺ « أمر أبا هريرة أن يحرس تمر الصدقة ، فجاء فى الليل شخص وجعل يأخذ من التمر ويضع فى ثوبه ، فقبض عليه أبو هريرة ، فاذا يده فيها شعر ، كأنها يد كلب ، فسأله أبو هريرة فأخبره أنه من الجن ، فقال له أهكذا أنتم معشر الجن ، فقال لقد علمت الجن ما فيهم أقوى منى » إلى آخر القصة . فلو كان أبو هريرة من شبان هذا الزمان الذين وضعوا

الخوف وتعلوه من أمهاتهم الجاهلات لأغى عليه بمجرد رؤية ذلك الجنس .
 وقوله تعالى وخلقهم أى وهو الذى خلق الجن ، فكيف يشركون به بعض مخلوقاته
 فالدين والعقل يوجبان على كل مخلوق أن لا يتعلق إلا بخالقه ولا يدعو غيره
 ولا يلتجئ الى سواه ، لأن العاجز لا ينقذ العاجز والفقير لا يغنى الفقير ، ومن
 كانت به علة فعجز عن دوائها لا يمكن أن يداوى غيره اذا كان مصابا بها ،
 وإلا كان كما قال أبو الأسود الدؤلى فيمن يعظ غيره وهو لا يتعظ :

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كما يصح به وأنت سقيم

وقوله تعالى (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) أى اختلقوا وكذبوا ، فزعموا
 أن لله أبناء كال مسيح وعزير وغيرهما عن يزعم النصارى أنهم أبناء الله . وتأولهم
 البنوة فى غير عيسى بالحبة وعلو المكانة لا ينفعهم شيئا ، لانهدام المناسبة بين الخالق
 والمخلوق والصانع والمصنوع ، فلوقلت لرجل صنع دمية جميلة هذه ابنتك لكان
 ذلك شبه عليه ، مع أن الصانع والمصنوع كلاهما مخلوق مسبوق بالعدم صائر الى
 الفناء ، فكيف بالأول الذى لا بداية له الآخر بلا نهاية الحى القيوم ؟ وما قدر والله
 حق قدر ، من جعل له أبناء من البشر . وزعمت العرب من أهل الجاهلية أن
 الملائكة بنات الله ، مع أنهم يكرهون البنات لأنفسهم ، قال تعالى فى سورة
 النحل (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، ٥٧) . سبحانه وتعالى
 عما يصفون ، نزه نفسه عما نسبه اليه الجاهلون . بديع السماوات والأرض خلقهما
 وأحسن خلقهما على غير مثال سابق ، ومن ثم قيل لكل أمر محدث فى
 الدين بدعة . كيف يكون له ولد ، ولم تكن له زوجة ، لأن التزاوج يقتضى
 التناسب والتماثل والتكافؤ ، والله ليس له شبيه ولا مثيل ولا كفو . ولا نظير .

وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم المرصوف بما تقدم ، هو الله ربكم الذى يربىكم بنعمه ، لا معبود لكم بالحق غيره فاعبدوه وحده لا شريك له ، وهو ولي أموركم الرقيب عليكم المتصرف فيكم فاقصدوه بجميع حاجاتكم ، فما لكم من دونه من ولي ولا نصير . لا تدركه الأبصار ، أى لا تحيط به ولا تراه فى الدنيا ، لأن حكمته اقتضت أن لا يراه المؤمنون إلا فى الدار الآخرة كما قال تعالى فى سورة القيامة (وجوه يومئذ ناضرة . الى ربها ناظرة ، ٢٢ ، ٢٣) أخرج البخارى ومسلم عن جرير بن عبد الله البجلي قال : كنا عند رسول الله ﷺ فنظر الى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر ، لاتضاءون فى رؤيته ، فان استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . وهو اللطيف الخبير . تقدم معناهما فى المفردات .

ثم قال تعالى : قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ (١٠٤) .

المعنى العام

البصائر جمع بصيرة ، وهى للذهن كالبصر للبدن ، والمراد بها هنا أسباب العلم بالحق والهدى ، وهى آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي (ﷺ) كما قال تعالى فى أول سورة الجمعة (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لى ضلال مبين) وقال تعالى فى سورة النحل (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، ٨٩) . والحفيظ ، هو الرقيب لذى يحاسب الناس على أعمالهم

ويجزئهم عليها . ومعنى الآية . قد جاءتكم البيّنات والدلائل الواضحات وعرفتم
سبيل الرشده وسبيل الغى ، فمن أبصر الحق واتبعه فلنفسه عمل خيرا والله غنى
عن العالمين . ومن عمى عن الحق باتباع هواه فعليها يعود وبالها . وما أنا بمراقب
ولا مجاز لكم ، وإنما على البلاغ المبين وحسابكم على الله .

ثم قال تعالى : وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبيته لقوم
يعلمون (١٠٥) إتبع ما أوحى إليك من ربك ، لا إله إلا هو ، وأعرض عن
المشركين (١٠٦) ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت
عليهم بوكيل (١٠٧) .

المعنى العام

قوله تعالى ، وكذلك نصرف الآيات ، أى مثل ذلك التصريف والتوضيح
نبين الآيات الدالة على الحق عالمين ، أن أعداء الحق المشركين سيقولون درست
يا محمد هذا القرآن وتعلمته من غيرك . وكان ذلك التصريف والتفصيل لنبيته أى
القرآن لقوم يعلمون علم تبصر وانتفاع واهتداء . ومثل هذا قوله تعالى فى سرورة
الفرقان (وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ،
فقد جاؤا ظلماً وزورا . وقالوا أساطير الأولين اكتبها فهى تملى عليه بكرة
وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض ، إنه كان غفورا رحيماً
٤ ، ٥ ، ٦) وقال تعالى فى سورة النحل (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه
بشر لسان الذى ياحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين . ان الذين لا يؤمنون
بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب اليم . إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون
بآيات الله وأرلئك هم الكاذبون ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥) ثم قال تعالى : اتبع ما أوحى
إليك من ربك الخ . أمر الله رسوله وأمه تبع له باتباع القرآن الذى أنزله

وبتوحيده سبحانه ، لا إله إلا هو ، لا معبود بحق سواه ، وأمره بالأعراض
 عن المشركين ، أى العفو عنهم حتى يأتى الله بأمره فيأذن بقتالهم وينصره عليهم
 ويظفره بهم . فله فى اضلالهم حكمة ، ولو شاء أن لا يشركوا ما أشركوا .
 وما جعلناك عليهم حفيظا أى حافظا لأعمالهم رقيبا عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل
 تتولى جزاءهم ، ان عليك إلا البلاغ المبين ، وقد فعلته وحسابهم على الله .
 ثم قال تعالى : ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا
 بغير علم ، كذلك زينا لكل أمة عملهم ، ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا
 يعملون (١٠٨)

المعنى العام

رأيت أن انقل هنا كلام ابن كثير بشيء قليل من الاختصار ، فانه حسن
 وواف بالمرام . قال ابن كثير : يقول تعالى ناهيا لرسوله (ﷺ) والمؤمنين عن
 سب آلهة المشركين وان كان فيه مصلحة ، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها
 وهى مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين ، وهو الله لا إله إلا هو . قال على
 ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية ، قالوا يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا
 أولنجهجون ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أو ثنائهم فيسبوا الله عدوا بغير علم . وقال
 عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فيسب
 الكفار الله عدوا بغير علم . فأنزل الله ، ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله
 وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أنه قال فى تفسير هذه الآية ، لما
 حضر أبى طالب الموت ، قالت قریش ، انطلقوا فلندخل على هذا الرجل ، فلما أمره
 أن ينهى عنا ابن اخيه ، فانا نستحى أن نقتله بعد موته ، فتقول العرب ، كان
 يمنعهم ، فلما مات قتله ، فانطلق أبو سفیان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمیه

وأبي أبناء خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البختري ،
 وبعثوا رجلا منهم يقال له المطلب ، قالوا استأذن لنا علي أبي طالب ، فأتى
 أبا طالب فقال ، هؤلاء منيخة قومك ، يريدون الدخول عليك ، فأذن لهم عليه
 فدخلوا عليه فقالوا ، يا أبا طالب ، أنت كبيرنا وسيدنا ، وأن محمداً ، قد آذانا
 وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه فنتهاه عن ذكر آلهتنا ولدعوه وإلهه ، فدعاه
 جاء النبي (ﷺ) فقال له أبو طالب : هؤلاء قومك وبنو عمك ، قال رسول الله
 (ﷺ) ما يريدون ؟ قالوا نريد أن تدعنا وآلهتنا ولدعك وإلهك ، فقال النبي (ﷺ)
 أرايتم أن أعطيتكم هذا ، هل أنتم معطو كلمة ، أن تكلمتم بها ملكتم بها العرب
 ودانت لكم بها العجم وأدت لكم الخراج . قال أبو جهل ، وأبيك لتعطينكها
 وعشرة أمثالها ، قال فما هي ؟ قال ، قولوا ، لا إله إلا الله ، فأبوا واشمأزوا ،
 قال أبو طالب ، يا ابن أخي قل غيرها ، فان قومك قد فزعوا منها ، قال يا عم
 ما أنا بالذي يقول غيرها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي ، ولو أتوا
 بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها فغضبوا ، وقالوا لتكفن عن شتم
 آلهتنا أو لنشتمنك ونشتمن من يأمرك ، فذلك قوله ، فیسبوا الله عدوا بغير علم .
 ومن هذا القبيل ، وهو ترك المصلحة لمفسدة ، أرجح منها ما جاء في الصحيح
 أن رسول الله (ﷺ) قال ، ملعون من سب والديه ، قالوا يا رسول الله ، وكيف
 يسب الرجل والديه ، قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه ،
 أو كما قال عليه السلام . وقوله : كذلك زينا لكل أمة ، أي من الأمم الخالية
 على الضلال عملهم الذي كانوا فيه . والله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما ينشأوه
 ويختاره . ثم إلى ربهم مرجعهم ، أي معادهم ومصيرهم فينبئهم بما كانوا يعملون
 أي يجازيهم بأعمالهم ، ان خيرا نغير وان شرا نشر . انتهى كلام ابن كثير .

قال مؤلفه : قوله تعالى : (كذلك زيننا لكل أمة عملهم) المراد بالتزيين عدم اجبارهم وقسوهم على اتباع الحق .

ثم قال تعالى : وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون (١٠٩ - ١١٠)

المفردات

ونقلب أفئدتهم ، وتقلب الله القلوب والبصائر ، صرفها من رأى الى رأى .
يعمهون ، العمه ، التردد في الأمر من التحير .

المعنى العام

يقول سبحانه وتعالى ، وحلف المشركون بالله قسماً مؤكداً أنهم سيؤمنون إذا رأوا خارقاً من الخوارق التي اقترحوها في قولهم (إن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) ، الى آخر ماجاء في الاسراء ، من ٩٠ - ٩٣ ، وهم في ذلك كاذبون ، وإنما قالوا ذلك تعنتاً وعناداً ، وقد أمر الله رسوله أن يقول لهم : إنما الآيات والخوارق والمعجزات عند الله هو الذي يأتي بها متى شاء .
ثم قال تعالى ، (وما يشعركم) أى وما يدريكم أيها المؤمنون أن الآيات التي اقترحوها إذا جاءتهم لأنهم يؤمنون بها . وقد علم الله أنهم ، إنما سألوا الآيات تعنتاً ومراوغة ، ولأنهم لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون بها . ثم قال تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) ، أى قلوبهم وأعينهم نصرَفها عن الايمان بامهالهم وابقاء النعم عليهم استدراجاً لهم كما لم يؤمنوا به أى بالقرآن أول مرة سمعوه فيها وتركهم في

ضلالهم يترددون وفي ظلمات كفرهم يتخبطون . ويبين ذلك في قوله تعالى في سورة الصف (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين) . فزيغهم سبب ازاغة الله لهم . وفسقهم سبب حرمانهم من هداية الله . وقد تقدم الكلام في هذا المعنى .

ثم قال تعالى : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون ، ١١٢)

المفردات

القبيل ، قال الراغب : يستعمل في التقدم المتصل والمنفصل ، ويقال ، هو جمع قبيل بمعنى كفيل . وعلى قراءة قبلا ، بكسر ففتح ، أى مقابلة .

المعنى العام

لما أقسم الكفار بالله جهد أيمانهم لأن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، كذبهم الله بقوله : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) ، الآية . وذلك لأن كفرهم ناشئ عن عناد واتباع للهوى ، لا عن جهل أو شك وعدم اقتناع . وما كان كذلك فالآيات والبراهين لا تؤثر فيه ، وإن كانت عظيمة كنزول الملائكة وتكليم الموتى واحضار كل شيء من الدلائل المغيبة أمامهم يشاهدونه عيانا . والله قادر على أن يجبرهم على الايمان بسلبهم الاختيار ، ولكن الله فعن باعطاء الاختيار ، (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فألمها فجورها وتقواها ، وهديناها للنجدين ، قد تبين الرشد من الغي ، فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، فاستجبوا العمى على الهدى) . وقوله تعالى : (ولكن أكثرهم يجهلون)

أى لا يعلمون ما فيه خيرهم وسعادتهم فيقبلون عليه ، وما فيه شقاؤهم فيبعدون عنه . ومثل ذلك قوله تعالى في سورة يونس : (إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية ، حتى يروا العذاب الأليم - ٩٧ ، ٩٨) وأمثال هذا في القرآن كثير .

ثم قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فنذرهم وما يفترون ، ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه ، وليقتروا ما هم مقترفون - ١١٣ ، ١١٤)

المفردات

قال الراغب : أصل القرف والاقتراف ، قشر اللحاء عن الشجر والجلدة عن الجرح . واستعير الاقتراف للاكتساب حسنا كان أو سوما .

المعنى العام

في هذه الآية تسليمة وتنبيت لقب النبي (ﷺ) بأخباره تعالى أن هذه سنة الله في جميع الرسل وفي من اتبعهم بصدق لا بد أن يكون له اعداء . كما كان للمرسلين الأولين ، إلا ان النصر مضمون ومحقق لرسول الله ومن اتبعه بصدق كما وقع لآخوانه المرسلين وأتباعهم . ومن خصائص النبي (ﷺ) التي خصه الله بها ولأمته منها نصيب أنه سبحانه نصره بالرعب مسيرة شهر ، يلقي الخوف والذعر في قلوب أعدائه ، وبينه وبينهم مسافة شهر . ولا بد أن تنهزم شياطين الإنس والجن أمام جند الله من المرسلين وأتباعهم ، ولا ينفع هؤلاء

الشياطين تعاونهم بزخرفة الأقوال والوعود التي يبشها شياطين الجن في قلوب
شياطين الانس كما قال تعالى : (يعدم ويمنيهم وما يعدم الشيطان إلا غرورا -
النساء : ١٢١) .

وقد جاء مثل هذا المعنى في مواضع من كتاب الله عز وجل . فمن ذلك
قوله تعالى في هذه السورة : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا
وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبي المرسلين :
٣٦) . وقال تعالى في سورة الفرقان : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من
المجرمين ، وكفى بربك هاديا ونصيرا : ٣٢) . وفي صحيح البخاري أن ورقة بن
نوفل قال لرسول الله (ﷺ) لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي . وروى
أحمد بسنده عن أبي ذر قال : أتيت النبي (ﷺ) وهو في المسجد ، جلست فقال :
يا أبا ذر ! هل صليت ؟ قلت : لا ، قال : قم فصل ، قال فقمت فصليت ثم جلست
فقال : يا أبا ذر ! تعودت بالله من شياطين الانس والجن ، قال : قلت يا رسول الله ؟
وللانس شياطين قال نعم . وفي رواية ابن جرير ، هم شر من شياطين الجن .
وقوله تعالى : (ولو شاء ربك ما فعلوه) . يعني أن تلك العداوة وقعت بمشيئة الله
وله فيها حكمة يظهر فيها نصره لأولياته على أعدائه ، وضعف كيد الشيطان امام
تأييد الرحمن ، وزهوق الباطل امام الحق ، وزيادة الاجر والثواب ورفع
الدرجات لأولياته المفلحين بما يصيبهم من أذى الأعداء ، فذرهم أى أتركهم مع
ما يفترون من الكذب فانه لا يعود عليهم إلا بالخسران . وقوله تعالى : (ولتصغى
إليه) إلخ . أى لتميل قلوب الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخرة تميل قلوبهم إلى
ذلك الوحي الشيطاني . وليرضوه ، يحبوه وليرتكبوا من الآثام والكفر وعبادة
أهل الحق ما هم مرتكبون .

ثم قال تعالى : (أفغير الله أبغى حكما ، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين (١١١) . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم (١١٦) .

المعنى العام

تقدم أن المشركين أرادوا أن يحاكموا النبي ﷺ إلى عمه أبى طالب ، فأمره الله أن يقول لهم ، أفغير الله أطلب حكما ؟ إن أفعل ذلك أبدا . أنا لا أَرْضى إلا بحكم الله . والحكم هو الحاكم النزيه الذى لا يحكم إلا بالحق ، وكما أن الخلق والأمر لله ، فالحكم لله وحده . قال تعالى : فى سورة يوسف (إن الحكم إلا لله : ٤١) فأنبىاء الله وأتباعهم لا يحكمون إلا بحكم الله ولا يتحاكمون إلا إلى الله ، فهو وحده الحكم والعدل ، وكل حكم يخالف حكمه فهو باطل . قال تعالى فى سورة المائدة : (أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون : ٥١) . وقوله سبحانه : (وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا) . يعنى أن الذى أنزل الكتاب وبين فيه جميع الأحكام لا يعدل عن حكمه إلا خاسر مبطل ، فكيف يطمعون من نبي الله أن يرضى بحكم غير الله ، وإنما أرسله الله ليجاهد فى سبيله حتى يكون الحكم له وحده لا شريك له . وما دخل الخلل والضعف والخذلان على المسلمين إلا بعد ما جعلوا الحكم لغير الله وابتغوا غيره حكما ، وجعلوا كتابه وراء ظهورهم فعاقبهم الله وجعلهم وراء الناس جزاء وفاقا وقوله تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب) إلخ . أخبار منه سبحانه بأن أهل الكتاب علماءهم يعلمون أن القرآن منزل من الله ملازم للحق لا يأتيه الباطل من بين

يديه ولا من خلفه ، ويعلمون أن الرسول محمدا حق ، فلا تكونون من الممترين الشاكين . ومثله قوله تعالى في سورة يونس : (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين : ٥٥) . ثم قال تعالى : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) الخ . يعنى أن كل ما أخبر الله به فهو حق واقع ، وكل ما حكم به فهو عدل . فيما أخبر به أن رسله والذين آمنوا بهم واتبعهم منصورون وهم الأعلون ، وأن أعداءهم خامرون مخذولون يلازمهم الخزي والضلال المبين . وكل ما أوجبه الله في القرآن فالعامل به موفق سعيد ، وتاركه شقي خائب مهين . وكل ما نهى الله عنه فهو مفسدة محققة ومضرة مهلكة . ولن يستطيع أحد أن يبدل كلمات الله ، لا ألفاظها ولا مدلولاتها . وهو السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم وأفعالهم المجازى كلا بما يستحق .

ثم قال : (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلون عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون . إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين : ١١٧-١١٨) .

المفردات

الخرص ، هو القول بالحزر والكذب .

المعنى العام

هذا خطاب من الله تعالى لرسوله ﷺ يخبره أن أكثر أهل الأرض هم على باطل وضلال ، فلا يستوحش أحد من قلة المؤمنين الصالحين ، ولا يغتر أحد بكثرة الكافرين الضالين . فوافقة الأكثرين خروج عن سبيل الله وضلال .

فأوجب الله على رسوله وعلى المؤمنين به أن يكونوا مع الصادقين وأن يتمسكوا بالحق ولا يغتروا بكثرة أهل الباطل، كما أخبر أن أهل الباطل ليسوا على بصيرة من أمرهم، وإنما يحذرون ويقدررون ويتبعون الظنون الكواذب، بخلاف أهل الحق فانهم على يقين لا شك فيه اطعمانت قلوبهم بالايمان ونشطت اجسامهم للعمل. وقد أخبرنا النبي (ﷺ) كما في صحيح البخارى من حديث اسماء بنت أبى بكر الصديق أن المؤمن يسأل فى قبره، يقال له: ما علمك بهذا الرجل، فيقول هو محمد، جاءنا بالبينات فأمانا به وصدقنا، واتبعناه، هو محمد، هو محمد، هو محمد، فيقال له: نعم صالحا، قد علمنا إن كنت لموقنا به. وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته. فالمؤمن على يقين من أمره فى الدنيا وفى القبر، والمنافق والمرتاب، ليس عنده إلا الخرص والظن فى الدنيا وفى الآخرة (ومن كان فى هذاه أعمى- فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) ثم أخبر تعالى أنه يعلم من ضل عن سبيله وخرج عن الحق واتبع هواه، ويعلم من اهتدى إلى اتباع الحق واستقام على الطريقة واتبع رضوانه، وسيجزي كلا بما يستحقه يوم تجزي كل نفس بما تسعى.

ثم قال تعالى: (فكلوا بما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين: ١١٩) ومالكم ألا تأكلوا بما ذكر اسم الله عليه، وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه، وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم، إن ربك هو أعلم بالمعتدين: ١٢٠).

المعنى العام

يأمر الله تعالى عباده أمر اباحة وامتنان أن يأكلوا كل ما ذكر اسم الله عليه من الذبائح بأن كان ذابحه مسلما. ووحدا يذكر اسم الله وحده على ذبيحته

ولا يذكر معه غيره ، وفي ضمنه النهى عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه أصلا ، أو ذكر اسم الله عليه واسم غيره ، كمن يأتي بالذبيحة إلى ضريح أو مكان مما يعظمه المشركون ويقول : الذبيحة على الله وعليك يا سيدى فلان ، وكذلك إذا نواه بقلبه ولولم يسم غير الله إذا ظهرت عليه القرائن كالإتيان بالذبيحة إلى مكان يعظمه المشركون ، وكذلك الذبيحة على الدار الجديدة خوفا من الجن وتزلفا إليهم ، وكذلك الذبيحة التي اعتاد جهال المغاربة أن يذبحوها تعظيما لشخص أو أشخاص من الأحياء أو من الأموات ليقضوا لهم حاجة ، فكل ذلك حرام أهل به لغير الله ، فأكله مع الاستحلال بلا ضرورة يناهى الإيمان ، ولذلك قال تعالى : (ان كنتم بآياته مؤمنين) . ولا يجوز للأؤمن أن يحرم على نفسه شيئا من الذبائح التي لم يحرمها الله ، وإن حرمها المشركون والجاهلون ، ولذلك قال تعالى : (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم) ، أي بين لكم ما حرم عليكم في هذه السورة بقوله تعالى : (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به) ، وسيأتى الكلام على ذلك في الآية (١٤٦) من هذه السورة إن شاء الله تعالى . وما حرمه رسوله (ﷺ) كسباع الوحش والطيور فهو داخل في ذلك لقوله تعالى في سورة الحشر : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا : ٨) . ومن جهال هذا الزمان من يحرم لحوم بعض الحيوان اعتمادا على الأوهام كالشيعة الاثنا عشرية أعنى عوامهم ، فانهم يحرمون نوعا من السمك يسمونه (الجرى) ويزعمون أنه عدو لهم . وقد أخبر سبحانه أن كثيرا من الناس يتبعون أهواءهم فيضلون بلا علم ويعتدون فيحلبون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ، وهو عليهم بهم وسيجزبهم وصفهم .

ثم قال تعالى : (وذروا ظاهر الاثم وباطنه إن الذين يكسبون الاثم سيجرون بما كانوا يقتربون (١٢١) ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون (١٢٢) .

المعنى العام

أمر الله تعالى عباده ، أن يتركوا الاثم كله ، أى المعاصى فى خلواتهم وجلواتهم ، ما ظهر من ذلك وما بطن ، علانيته وسره ، فان الله لا تخفى عليه خافية ، ومن أسر سريرة ألبسه الله رداها ، وما أحسن قول زهير .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ثم أخبر تعالى : بأن الذين يرتكبون المعاصى سيجزون بما كانوا يعملون ، سواء ارتكبوا ذلك سرا أم علانية . روى مسلم فى صحيحه عن النواص بن سيمان أن رسول الله (ﷺ) قال : البر حسن الخلق ، والاثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس . معنى ذلك أن المؤمن إذا ارتكب شبهة تنقبض نفسه وتلومه على ذلك ويكره أن يطلع عليها الناس الصالحون فيعيبوا ذلك عليه ، فينبغى له أن يترك ذلك وينهى نفسه عنه ويراقب الله تعالى . هذا فى الشبهة ، فكيف بالمعصية الواضحة ، فهى أولى بالتجنب . وقوله تعالى : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) إلخ . نهى الله عباده عن أكل الميتة وذبائح المشركين ، وأخبر أن ذلك فسق ، أى خروج عن طاعة الله وارتكاب لمعصيته . أما ذبيحة المسلم التى لم يسم الله عليها ، فان ترك التسمية عمدا فهى حرام وفاقا لجمهور الأئمة وخلافا للشافعى رحمه الله . وأما ان ترك التسمية سهوا فالصحيح جواز أكلمها ،

وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد، وهو المروى عن جماعة من الصحابة. وقوله تعالى: (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) ملح. روى أبو داود بسنده إلى ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبي (ﷺ) فقالوا: نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله، فأنزل الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه)، الآية. وقد انتقد الامام ابن كثير ذكر اليهود في هذا الحديث، لأنهم هم أيضا يحرمون الميتة، ولأن الآية مكية فلم يشهد اليهود نزولها، وصح الرواية التي ليس فيها ذكر اليهود، يعنى أن ذلك الاعتراض لم يقع من اليهود، وإنما وقع من المشركين بمكة أوحى به إليهم شياطينهم ليجادلوا النبي (ﷺ) والمسلمين، وهو مغالطة، لأن الله لم يقتل البهيمة الميتة، وإنما أماتها بمرض ونحوه كسقوط من شاق وضربة بميتة ولدغة حية وافتراس سبع، ولو سلمنا أن ذلك يسمى قتلًا لم تكن لهم حجة فيما جادلوا به، لأن الله تعالى هو الذى قتل المذبوحة أيضا وأباحها لنا إذا ذكر اسمه عليها، ولم يبح لنا سواها. وقوله سبحانه، (ولإن أطعموهم إنكم لمشركون). فيه أن من وافق المشركين في تحليل ما حرم الله كالحم الخنزير مثلا فهو منهم. وقد رأيت أكثر الطلبة في أوربة من أهل البلاد الإسلامية يأكلون لحم الخنزير ويجادلون من امتنع من أكله ويعيدونه رجعيا، فيا خبذا الرجعية التي ترجع بنا إلى زمان محمد رسول الله وخلفائه ودول الاسلام وعزة الاسلام حين كان الخليفة في بغداد ينظر إلى السحابة في السماء فيقول لها، أمطرى حيث شئت فان خراجك سيصل إلى، ولعنة الله على التقدم الذى يجعل دولته في أسفل سافلين وأذل الأذلين ولا حول لها ولا طول، لا تستطيع أن تأخذ حقا ولا أن ترد عدوانا ذليلة في السماء ذليلة في الأرض ذليلة في البر ذليلة في البحر، مفلسة تمد يدها تتكفف النول الغنية، عالة على غيرها حتى في الأبرة وأعواد

الكبريت ، فنعوذ بالله من هذا التقدم الذى هو عن التأخر والسقوط .
ثم قال تعالى : (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس
كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون
(١٢٥)

المعنى العام

ضرب الله سبحانه مثلا للاؤمنين والكافرين ، فأخبر أن من كان كافرا فأسلم
كمن كان ميتا فأحياه الله وأعطاه نورا يسير به فى الناس يعرف به ما ينفعه
ويرفده فيرغب فيه وبآتيه ، وما يضره ويخفضه فيرغب عنه ويذره . أما من بقى
على كفره ، فهو ميت فى ظلمات ، ظلمة فى عقيدته لجهالة بالحق واعتقاده الباطل ،
وظلمة فى أخلاقه ، إذ ليس له وازع يمنعه من ارتكاب مساوىء الأخلاق ، وظلمة
فى معاملته للناس إذ ليس عنده شىء من مراقبة الله وخشيته حتى يعامل الناس
بالعدل والرحمة فهو فى ظلمات متنوعة . وقد جاء هذا المعنى فى مواضع كثيرة
من كتاب الله ، قال تعالى فى سورة البقرة : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من
الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى
الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون : ٢٥٨) وقال تعالى فى سورة فاطر :
(وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور .
وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بسمع من
فى القبور : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣) . وقوله سبحانه : (كذلك زين للكافرين ما كانوا
يعملون) . تقدم معنى تزيين العمل إذا أسند الى الله تعالى ومعناه إذا أسند إلى
الشیطان فى تفسير الآية (١٠٩) . ولا بد من التمييز بينهما .

ثم قال تعالى : (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليذكروا فيها وما

يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون : ١٢٤) وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى
تؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا
صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون : ١٢٥)

المعنى العام

قوله عز وجل : (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها) ، إلخ . خير
ما يفسر به القرآن القرآن . وقد جاء هذا المعنى في مواضع من الكتاب العزيز
قال تعالى في سورة الفرقان : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين : ٣٢)
وتقدمت الإشارة إلى معناه ، والتنبيه هنا واقع بين المجرمين الأكابر في مكة
وسائر البلاد العربية الذين حاربوا الإسلام في أول ظهوره واستمروا في محاربه
حتى خذلهم الله ، وبين المجرمين الأكابر من رؤساء الأمم السالفة الذين قادوا
أتباعهم من المستضعفين إلى الضلال والهلاك . وقال تعالى في سورة الاسراء :
(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها
تدميرا : ١٧) . أى أمرناهم بالطاعة والعدل والاحسان ففسقوا عن أمر ربهم
فأهلكناهم اهلاكا . وقوله سبحانه (ليمكروا فيها) ، اللام للعاقبة كما في قوله تعالى
في سورة القصص : (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا : ٩) فانهم
لم يقصدوا بالتقاطه ان يكون عدوا لهم وحزنا بدليل قول امرأة فرعون في الآية
التي تليها ، (قرة عين لى وارك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولدا) ، ولكن
آل الأمر إلى أن كان لهم عدوا وحزنا ، كقول الشاعر :

لدوا للوت وابنوا للخراب فكلكم يصل إلى ذهاب

وقال الآخر :

فلموت تغذوا الوالدات سخاها كما لخراب الدهر تبني المساكن

والوالدات لا تغذو صغارها ليموتوا ، بل تغذوهم ليعيشوا ، ولكن ما لهم إلى الموت ، وكذلك الذين بينون البيوت لا بينونها بقصد التهدم والخراب ، بل لتبقى مدة من الزمان طويلة ، ولكن ما لها إلى التداعى والخراب ، ومكر الرءوساء هنا تزيينهم الظلم والفسق وسائر المنكرات واقبالهم عليها فيتبعهم الضعفاء والغوغاء فيعمهم الله بعذابه ويدمرهم تدميرا . وقوله تعالى : (وما يمكرون إلا بأنفسهم) ، إلخ . يبنى أن وبال مكرهم يعود عليهم لكنهم لا يشعرون بذلك في وقت مكرهم . ومثل ذلك قوله تعالى في سورة فاطر : (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله : ٤٤) . ثم قال تعالى : (وإذا جاءتهم آية . إلخ . يعنى أن هؤلاء المجرمين الجاحدين المعاندين إذا جاءتهم أى ظهرت لهم معجزة تبرهن على صدق الرسول ازدادوا عنادا وركبوا رءوسهم وقالوا بلاحياء ، لن تؤمن حتى نعطي مثل ما أعطى رسل الله فتنزل علينا الملائكة بالوحي كما نزلت على الرسل . ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الفرقان : (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا : ٢٢) . ثم قال تعالى ردا عليهم : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ، يعنى الله يعلم من يستحق أن يوحى إليه ويكون رسولا إلى عباده . والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ليس بأمانتهم ولا أمان أهل الكتاب . ومثل ذلك قوله تعالى حكاية عنهم في سورة الزخرف : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم : ٣٢) . فرد الله عليهم بقوله (أهم يقسمون رحمة ربك) ؟ . ثم أوعد الله هؤلاء المجرمين ببأسه الذى لا يرد عنهم فقال (سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) ، وهذا وعيد شديد لأكابر المجرمين وأتباعهم وأعاونهم فى كل زمان ومكان لا يتخلف أبدا ، فتى فسد نظام المجتمع الحق وزال العدل وحل محله الجور واستبد الأقرباء وصاروا

لا يحسبون أى حساب للضغفاء فلا بد أن يصيبهم الصغار عند الله وعند الناس فيذلهم الله ، والدليل على أن هذه الذلة تصيبهم فى الدنيا وفى الآخرة قوله تعالى فى سورة الأعراف: (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا). فالذين اتخذوا العجل كانوا أكبر المجرمين من قوم موسى حين غاب عنهم لاجاة الله وخلف عليهم أخاه هارون فاستضعفوه وكادوا يقتلونه حين أنكروا عليهم عبادة العجل الذهبى الذى صنعه موسى السامرى ، وكان ذلك من مكروه ومكر شيعته ، إذن فلا نجاة لأكثر المجرمين ولا مناص لهم فى كل أمة وفى كل قطر وفى كل زمان إذا مكروا فى بلدهم وفى شعبيهم من الصغار والذئاب الشديد فى هذه الدنيا وفى الآخرة .

ثم قال تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون : ١٢٦) . وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرهم : (١٢٧) .

المعنى العام

قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه) ، إلخ . يعنى أن من طلب الهدى والحق ونهى نفسه عن هواها ، فقد أراد الله هدايته فهو يشرح صدره أى يفتحه ويوسعه للإسلام ويحبب له الإيمان ويزينه فى قلبه ويكره له الكفر والفسوق والعصيان ، فيطمئن قلبه وتسهل نفسه وتنزل عليه السكينة ، وأما من اتبع هواه ونأى عن الحق وبادر إلى رفضه فإن الله يريد إضلاله ويجعل صدره ضيقا حرجا قد سدت عنه طرق الهدى والنور كالإنسان الذى يريد الصعود إلى السماء .

فهو لا يستطيع ذلك ، فكذلك من تكبر عن الحق وزاغ أزاغ الله قلبه فلا يهتدى إلى الحق ألبتة . وقد فسر العلماء في هذا الزمان ذلك بمن يريد أن يخترق الغلاف الهوائى المحيط بالأرض فهو لا يكاد يستطيع ذلك ولا يقاربه ، بل متى ارتفع فى الجو بجناحين طبيعيين كأجنحة الطير أو صناعيين كالمطائرات متى ارتفع بضعة أميال أحس بضيق شديد نقلة الهواء الذى يتنفسه ورقته ، فاذا لم يصطحب هواء معه لا يستطيع أن يرقى إلى قمم الجبال الشاخحة ، كما على جبال هملايا ، وهو من الأرض ، فكيف يستطيع أن يخترق جوا الأرض ويخرج منه ؟ ذلك مستحيل . وكذلك من زاغ عن كتاب الله وسنة رسوله لا يدخل الهدى قلبه أبدا . فان قلت قد استطاع الناس فى هذا الزمان أن يخترقوا هذا الحجاب وينفصلوا عن الأرض انفصالا تاما بحيث لا يبقى لها عليهم سلطان تجذبهم به إلى ظهرها ، ثم إلى جوفها اذا لم يوجد حاجز . والسلطان الذى يبقى لها عليهم كالسلطان الذى لها على القمر ، وهو ضعيف ، لا يمنعه من الخروج من جوها . فالجواب ما قاله علماء هذا الزمان فى قوله تعالى فى سورة الرحمن (يا معشر الجن والانس ان استطعتم من اقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان : ٢٤) تحدى الله الجن والانس أن يخرجوا من جوانب السماوات وجوانب الأرض فارين من قضائه إن استطاعوا ذلك . ثم أخبر أنهم لا يستطيعون ذلك إلا بقوة وقدرة ، وليس لهم تلك القوة . قالوا : هذا إذ أرادوا أن يفروا من قضاء الله إلى حيث لا يشملهم ولا يأتى عليهم ، وأما إذا أرادوا أن يخرجوا من أقطار السماوات والأرض صائرين من قضاء الله الى قضاء الله سالكين سنة الله فى

استخراج المجهول من المعلوم فلا مانع من أن يمنحهم الله ذلك السلطان ، بأن
يلهمهم صنع الوسائل التي تعينهم على ذلك كالصواريخ الدافعة وسفن الفضاء المحكمة ،
والله أعلم .

وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث رواه أئمة التفسير بطرق متعددة
بمجموعها يكسبه درجة الحسن فلا بد من ذكره . روى ابن جرير وغيره عن ابن مسعود
لما نزلت هذه الآية ، سئل النبي (ﷺ) عن شرح الصدر ، فقال ، نور يقذفه الله
في قلب المؤمن فيشرح له وينفسح ، قيل : فهل لذلك أماره قال نعم ، الإجابة
إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للوت قبل نزول الموت .
قوله تعالى ، (كذلك يجعل الله الرجس) إلخ . اختلف أقوال المفسرين في الرجس ،
فقال بعضهم : هو العذاب ، وقال بعضهم : هو الشيطان ، وقال بعضهم : الرجس ،
كل ما لا خير فيه . أقول : إنه يدل على ذلك كله ، لأن اتباع الشيطان مستلزم
للعذاب ولا خير فيه . والذين لا يؤمنون عناداً متبعون للشيطان وبعيدون من
الخير . قال تعالى في سورة مريم (ألم تر أنا أرسلنا الشيطان على الكافرين توتهم
أزاً : ٨٣) أي تهزهم وتغريهم بالكفر والطغيان . وقوله تعالى ، (وهذا صراط
ربك مستقيماً) ، إلخ . يعني أن هذا الأمر الذي أنت عليه وقد أمرك الله به ،
هو صراط الله المستقيم ، من أتبعه سعد ونجا ، ومن خالفه شق وهلك . (قد
فصلنا الآيات) ، أي بينها (لقوم يذكرون) ، أي يتعظون ويتفتعون بها ، وأما
غيرهم فسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .

ثم قال تعالى : (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون :
١٢٨) . ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال
أوليائهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ، قال

النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليهم : (١٢٩) . وكذلك

نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون : (١٣٠) .

المعنى العام

قوله سبحانه : (لهم دار السلام) ، إلخ . يعنى أن المؤمنين المتبعين لكتاب الله لهم دار السلام عند ربهم ، وهى الجنة ، سميت بذلك ، لأن من دخلها فقد سلم من عذاب الله ومن كل شر وظفر بكل خير ، وهو أى ربهم وليهم تولاهم فى الدنيا بالهداية والتسايد والنصر على أعدائهم ، وتولاهم فى الآخرة بمغفرته ورضوانه وأدخلهم دار كرامته . وهذا شأن أولياء الله . قوله تعالى : (ويوم يحشرهم) ، أى يحشر الله الجن والانس ، فيقول لهم ، يا معشر الجن قد استكثرتم من اضلال الانس وإغوائهم ، فيقول أولياؤهم الذين كانوا يعبدونهم ويتبعون خطواتهم ويأتمرون بأمرهم يا ربنا استمتع بعضنا ببعض . فاستمتع الانس بالجن أنهم كانوا يعوذون بهم كما قال تعالى فى سورة الجن (ولأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا : ٧) . قال ابن جرير وغيره : كان العرب فى الجاهلية إذا نزلوا واديا يقولون : نعوذ بكبير هذا الوادى من سفهاء قومه ، وأما استمتاع الجن بالانس فهو ما ينالونه منهم من التعظيم والذبح لهم والخضوع والتذلل . ومن أطاع الله من الفريقين يكون أنسة واستماعة وفرحة به سبحانه مستغنيا عن غيره ، وذلك هو الفوز العظيم . فيقول الله لهم : (النار مثواكم) ، أى مأواكم ومسكنكم خالدين فيها إلا ما شاء الله من إخراج الموحدين من أمة الاجاب فبعد استيفاء ما قدر لهم من العذاب على ما ذهب اليه أهل السنة والجماعة من عدم خلود الموحدين فى جهنم اعتمادا على الأحاديث الصحيحة المروية عن النبي (ﷺ) . ومثل هذه الآية قوله تعالى فى سورة هود : (فأما

الذين شقوا فني النار لهم فيها زفير وشهيق . خالد بن فيهما ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد : (١٠٧ ، ١٠٨) . وفي ذلك رد على المعتزلة والخوارج القائلين بأن كل من دخل النار يخلد فيها ، وإن كان موحدًا . وقوله تعالى : (إن ربك حكيم) . فمن حكمته ، إثابة المطيع وتعذيب العاصي بالكفر مع تخليده في العذاب ، وتعذيب العاصي من الموحدين على قدر ذنوبه . عليهم أحاط علمه بكل شيء . فكل ما فعله أو شرعه فهو صادر عن علم وحكمة . قوله تعالى : (وكذلك نولي بعض الظالمين) إلخ . قال قتادة في تفسير هذه الآية : إنما يولي الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولي المؤمن من أين كان وحيث كان ، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمنى وفسرها بعض السلف ، بأن الله يسلط الظالمين بعضهم على بعض سواء كانوا من الجن أم من الإنس واستشهد بقوله تعالى في سورة الزخرف : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين : ٣٧) . وقال تعالى في سورة فصلت : (وقيضنا لهم قرنا . فزینوا لهم ما بین أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين : ٢٦) . وروى ابن عساکر عن ابن مسعود مرفوعا ، من أعان ظالما سلطه الله عليه . قال الحافظ ابن كثير : حديث غريب . وقال الشاعر :

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سييلى بظالم

قال ابن كثير : ومعنى الآية الكريمة ، كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض . وننتقم من بعضهم ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم . ثم قال تعالى : (يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون

عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا شهدنا على أنفسنا، وغرتهم الحياة الدنيا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين: (١٣١).

المعنى العام

قوله تعالى، (يا معشر الجن والانس)، الخ. يسأل الله سبحانه الكافرين من الجن والانس يوم القيامة سؤال تقرير وتوبيخ، ألم يحثهم رسل منهم، أى من مجموعهم، لأن الرسل لم يكونوا إلا من الانس وحدهم، فهو كقوله سبحانه فى سورة الرحمن (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان: ٢٣). فالضمير فى منهما يعود على البحرين، العذب والملح، وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح وحده. وقوله تعالى: (يقصون عليكم آياتي)، أى يتلون عليكم كلام الله ويفصلون لكم أوامره ونواهيه وينذرونكم من عذابه. فى هذا اليوم، وهو يوم القيامة، فيقول أولئك المسئولون، (شهدنا على أنفسنا). ونحن مقرون بأن الرسل قد جاءونا وبلغونا أوامرك، ولكن غلبت علينا شهواتنا وشقواتنا وآثرنا الحياة الدنيا ولم نستطيع أن نكبح جماح أنفسنا الأماراة بالسوء. ثم قال تعالى ذاما لهم، (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين). فان قيل: فكيف توفق بين هذه الآية والتي تقدمتها فى أول السورة (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين: ٤٢) فالجواب أنهم حين يرون أهوال يوم القيامة، لأول مرة يصيبهم فزع عظيم فيكذبون ويحجدون شركهم حتى اذا شهدت عليهم أسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وشهدت عليهم رسالتهم لم يسعهم الإنكار فباعتترفون بجرائمهم.

ثم قال تعالى: (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون: ١٣٢) (ولكل درجات بما عملوا وما ربك بغافل يعملون: ١٣٣)

المعنى العام

قوله سبحانه ، (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى) ، الآيتين . الإشارة الى إرسال الرسل مبشرين ومنذرين إقامة للحجج على المرسل اليهم ، لأن الله حكيم عدل لا يهلك الأمم بسبب ظلم كبير ، وهو الشرك ، أو أقل منه ، وهو ظلم الناس بعضهم بعضا وهم غافلون لم تبلغهم رسالة رسول ولا تلى عليهم كتاب الله ولم يندروا ولم يحذر اليهم . وقيل : معناه لم يكن ربك ليهلك الأمم ظالما لهم قبل إقامة الحججة عليهم بإرسال الرسل . وفي جعل الظلم بنوعيه سببا لإهلاك الأمم تنبيه على فظاعته وتحذير للجماعات والأفراد من عواقبه الوخيمة ، يوضح ذلك قوله تعالى في الآية التي سبقت من هذه السورة (الذين آمنوا ولم يلبسوا لإيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون : ٨٣) نفهم من ذلك أن الظلم سبب الهلاك الأعظم ، وأن ضده ، وهو العدل ، سبب الأمن ، فمن أراد الأمن من عذاب الله من الجماعات والأفراد ، فعليه أن يتمسك بالعدل ويتجنب الظلم ، أعاذنا الله منه ومن أهله . ثم قال تعالى : (ولكل درجات مما عملوا) . أى لكل جماعة أو فرد درجات في الثواب والعقاب على حسب أعمالهم إن خيرا نخير وإن شرا فشر ، فعمل الانسان وحده هو الذى يرفعه أو يخفضه ، وهو الذى يسعده أو يشقيه . والقرآن الكريم مشحون بهذا المعنى ، قد تكرر فيه كثيرا بعبارات مختلفة . وقوله تعالى : (وما ربك بغافل عما يعملون) . يعنى أن الله بالمرصاد لكل عامل يرقب عمله لا يخفى عليه منه شيء ويجازيه بما عمل ، وباب التوبة مفتوح ، ومن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ويغفر له .

ثم قال تعالى : (وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين : ١٣٤) ، ان ما توعدون لآت وما أتم

بمعجزين : ١٣٥) قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اى عامل فسوف تعلمون ،
من تكون له عاقبة الدار اى لا يفلح الظالمون : ١٣٦) .

المعنى العام

قوله تعالى : (وربك الغنى ذو الرحمة) ، الخ . الخطاب للنبي (ﷺ) ثم لكل
من يصلح للخطاب فأخبر أنه الغنى عن جميع من سواه ، الغنى المطلق ، وليس ذلك
لأحد من خلقه . وهو مع ذلك رحيم بهم رؤوف عليهم كما قال تعالى فى سورة
الحج (إن الله بالناس لرؤوف رحيم : ٦٦) ثم أخبر سبحانه وتعالى : أنه هو
المتصرف فى خلقه لا يشاركه فى ذلك أحد ينصر من أطاعه من الأمم ويرفع
قدرهم ويعينهم فى جميع أمورهم وينجح مساعيهم ويهلك من كفر به وعصى أمره
واتبع هواه واتخذ الشياطين أولياء من دون الله فيذهب قوما ويسلبهم نعمته
ويأتى بآخرين مكانهم ليبتليهم ، فمن شكر زاده ، ومن كفر أباده ، وذلك هين
يسير عليه (إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) . وقوله سبحانه ،
(ما يشاء) ، هو بمعنى من يشاء . وقد تستعمل ما للعاقل كما قال تعالى فى سورة
النساء (فانكحوا ما طاب لكم من النساء :)

وقوله سبحانه : (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) ، زيادة فى الايضاح وتقرير
للمعنى فى ذهن القارىء والسامع ، أى كما أذهب القوم الذين أنتم ذريتهم واستخلفكم
فى الأرض مكانهم ، هو قادر على إذهابكم واستخلاف من يشاء بعد ذهابكم ، فان
أسأتم التصرف فيما استودعكم عوقبتكم فى الدنيا والآخرة وتركتم خلفكم ذكرا سيئا
تذكرون به . وهذا المعنى تكرر وروده فى مواضع متعددة من الكتاب العزيز
بعبارات متشابهة يفسر بعضها بعضا . قال تعالى فى سورة النساء : (إن يشأ يذهبكم
أيها الناس ويأت بآخرين ، وكان الله على ذلك قديرا : ١٣٤) وقال تعالى : فى

سورة فاطر (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز) . وقال تعالى في سورة محمد (ﷺ) (والله الغني وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) . وقوله تعالى : إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) . أى أن الذى توعدونه من البعث والجزاء واقع لا محالة ، ولا تستطيعون أن تفلحوا منه . أخرج ابن أبي حاتم فى تفسير هذه الآية بسنده الى أبى سعيد الخدرى عن النبي (ﷺ) قال : يا بنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذى نفسى بيده ، إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين . وقوله تعالى : (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم) الخ . يقول سبحانه : قل يا محمد لقومك المكذبين لك المحاربين لما جئت به من الهدى ، اعملوا على مكانتكم ، أى استمروا على ما أنتم عليه من الكفر بالله ومحادة الله ورسوله فنحن معشر المؤمنين مستمرون على طاعة الله والتمسك بهذا الدين ، وانتظروا عاقبة عملكم التى حذرتكم منها إنا منتظرون ما وعدنا الله به من النصر عليكم والفتح المبين والتمكن من نواصيكم والقضاء على أهل الباطل . وسترون بأعينكم من تكبرن له عاقبة الحسنة . ولا شك أنها تكون لنا لا لكم ، لأنكم ظالمون بالشرك وارتكاب الآثام . وقد قضى الله أن الظالمين لا يفلحون أبدا . وقد تكرر مثل هذا التهديد فى الكتاب الكريم ، قال تعالى : فى سورة هود مخاطبا رسوله الصادق المصدوق (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون . وانتظروا انا منتظرون : ٢٢ - ٢٣) عن ابن عباس ، على مكانتكم ، ناحيتكم . قال تقي الدين : وفى هذا التهديد وما شاكله من آيات الكتاب المبين التى نزلت فى مكة حين كان النبي (ﷺ) مستضعفين ، وعدوهم قوى ، كثير العدد والعدد فيه معجزة عظيمة بادية للعيان يدركها كل من يقرأ القرآن ويفهم معناه

على أى اعتقاد كان ، اذا ترك التعصب جانبا ؛ ورضى بالحق صاحبا . ومن الآيات المتضمنة لمثل هذا التهديد قوله تعالى فى سورة المؤمن (إنا لننصر رسلانا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار : ٥٢ - ٥٣) . وقال تعالى فى سورة المجادلة : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز : ٢٢) وقال تعالى فى سورة ابراهيم (فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين : ١٤) (ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد : ١٥) . وقال تعالى فى سورة النور : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفن فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . وأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحون . لا تحسبن الذين كفروا مهجزين فى الأرض وماواهم النار ولبس المصير : ٥٦ - ٥٨) . وقد أنجز الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . فإذا يقول المرتدون عبيد الاستعمار وسياسرته الذين يعظمون الحقير مما يدعونه من العلم والعمل ، ولا علم عندهم ولا عمل . ويحقرون العظيم من علم النبي (ﷺ) والسلف الصالح وأعمالهم الباهرة الخالدة . ثم قال تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فا كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون : ١٣٧)

المفردات

قوله تعالى ، ذرأ ، خلق وأوجد .

المعنى العام

قوله تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ) الخ . سأ نقل تفسير الخازن لهذه الآية فاني وجدته مع سهولة عبارته وافيا بالمرام . قال الخازن : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) الآية . لما بين الله عزوجل قبيح طريقة الكفار وما كانوا عليه من إنكار البحث وغير ذلك عقبه بذكر أنواع من جهالاتهم وأحكامهم الفاسدة تنبيهها على ضعف عقولهم وفساد ما كانوا عليه في الجاهلية فقال تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ) أى خلق من الحرث ، يعنى الزرع والنمر ، والأنعام ، يعنى ومن الانعام ، وهى الابل والبقر والغنم نصيبا ، يعنى قسما وجزءا . قال المفسرون : كان المشركون في الجاهلية يجعلون لله من حروثهم وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيبا وللأصنام نصيبا ، فما جعلوه من ذلك لله صرفوه الى الضيفان والمساكين ، وما جعلوه للأصنام أنفقوه عليها وعلى خدمتها ، فان سقط شئ مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه ، وقالوا : إن الله غنى عن هذا . وان سقط شئ من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان ، وقالوا ، انها محتاجة اليه . وكانوا اذا هلك شئ مما جعلوه لله لم يبالوا به ، واذا انتقص شئ مما جعلوه للأوثان جبروه مما جعلوه لله . فذلك قوله ، (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) ، وفيه اختصار ، تقديره ، وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا (فقالوا ، هذا لله بزعمهم) يعنى قولهم الذى هو بغير حقيقة ، لأن معنى زعم حكاية قول يكون مظنة الكذب . ولذلك لا يجيى إلا فى موضع ذم لقائله . وانما نسبوا الى الكذب فى قولهم ، هذا لله بزعمهم ، وان كانت الأشياء كلها لله لاضافتهم نصيب الاصنام مع نصيب الله ، وهو قولهم

(وهذا لشركائنا) يعنى الأصنام ، وإنما سموها الأصنام شركاء ، لأنهم جعلوا لها نصيبا من أموالهم ينفقونه عليها (فما كان لشركائهم) يعنى ما جعلوه لها من الحرث والأنعام (فلا يصل الى الله) يعنى فلا يعطونه المساكين ولا ينفقونه على الضيفان (وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) والمعنى ، أنهم كانوا يقرون ما جعلوه للأصنام بما جعلوه لله ، ولا يقرون ما جعلوه لله بما جعلوه للأصنام وقال قسادة : كانوا اذا أصابتهم سنة ، أى قحط وشدة استعانوا بما جعلوه لله وأكلوا منه ووفروا ما جعلوه لشركائهم ولم يأكلوا منه شيئا . وقال الحسن والسدى كانوا اذا هلك ما جعلوه لشركائهم أخذوا بدله مما جعلوه لله ، ولا يفعلون ذلك فيما جعلوه لشركائهم ، فذلك ذمهم الله تعالى فقال ، (ساء ما يحكون) يعنى بش ما يحكون ويقضون ، وذلك أنهم رجحوا جانب الأصنام على جانب الله تعالى فى الرعاية والحفظ . وهذا سفه منهم . وقيل : إن الأشياء كلها لله عزوجل وهو خالقها ، فلما جعلوا للأصنام جزءا من المال ، وهى لا تملك ولا تخلق ولا تضر ولا تنفع فسبوا الى الاساءة فى الحكم . والمقصود من ذلك بيان ما كانوا عليه فى الجاهلية من هذه الأحكام الفاسدة التى لم يرد بها شرع ولا نص ولا يحسنها عقل .

قال تقي الدين : عندى وجه آخر فى تفسير هذه الآية أخذته من حديث النبي ﷺ وهو أن المشركين يشركون بالله وصدقائهم فيجعلون بعض أموالهم صدقة لله يعطونها المساكين لوجه الله ، ويجعلون بعض أموالهم نذورا وصدقات للألحتم وأوليائهم وشركائهم من الملائكة والجن والنس والأشياء المنسوبة اليهم من هياكل وتمائيل وصور ، وهى الأصنام ، وقباب وأحجار وأشجار ومياه

وغير ذلك من الجمادات ، وهى الأوثان . فيما كان من الصدقات والندور لشركائهم
فلا يصل الى الله ، أى لا يقبله الله ، لأنه لم يقصد به وجه الله . وما كان لله من
صدقاتهم وندورهم فهو يصل الى شركائهم ، لأن الله لا يقبله ، بل يتركه لأوائك
الشركاء ، لأنه خير الشريكين ، فلو أن شخصا تصدق الله بقناطر مقلطة ،
وتصدق لغير الله بأقل شيء من ماله لرد الله كل تلك القناطر وتركها لذلك
الشريك ولم يقبلها أبدا لقوله تعالى فى سورة المائدة : (انه من يشرك بالله فقد حرم
الله عليه الجنة وماواه النار وما للظالمين من أنصار : ٧٣) وقال تعالى فى سورة
الحج (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير
مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به
الريح فى مكان سحيق : ٣٢) فالآيتان تدلان على أن المشرك هلاكه محقق وحرمانه
من كل خير متيقن ، فلا ينتفع بشيء من عباداته لله ، لأن الله لا يقبل منها شيئا .
يزيد ذلك وضوحا قوله تعالى فى سورة الزمر (ولقد أوحى اليك والى
الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله
فاعبد وكن من الشاكرين : ٦٦ ، ٦٧) وقوله تعالى فى سورة الكافرين (ولا أنتم
عابدون ما أعبد) مع أنهم كانوا يعبدون الله بالصدقة والحج وغير ذلك ،
ولكن لما كانت عبادتهم مردودة وأعمالهم محبطة ، صارت عبادتهم كالعدم . وعلى
هذا تكون صدقات المشركين وندورهم لله مردودة عليهم صائرة الى نصيب
شركائهم . وتفسير الآية على هذا الوجه مبنى على تفسير القرآن بالقرآن ، يضاف
الى ذلك حديث النبي ﷺ الذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة
مرفوعا ، قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معي

فيه غيرى تركته وشركه . وفي رواية ابن ماجه ، فأنا منه برى ، وهو الذى
أشرك . ثم قال تعالى : (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم
ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون :
(. ١٣٨)

المعنى العام

قوله تعالى : (وكذلك زين لكثير من المشركين) الخ . أى كما زينت الشياطين
للمشركين أن يجعلوا لغير الله من الشركاء نصيبا من أموالهم زينوا لهم أيضا قتل
أولادهم خوفا من الفقر أو خوفا من العار بزعمهم ، فقد حكى الله عنهم أنهم
كانوا يقتلون أولادهم خوفا من الفقر . وحكى عنهم أيضا أنهم كانوا يئدون
بناتهم ، كما قال تعالى ﴿ وإذا المؤودة سُئلت بأى ذنب قتلت ﴾ فى سورة التكويد
﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من
سوء ما بشر به أيمنكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون : ٥٩ ، ٦٠ ﴾
وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أحد السببين الحاملين لهم على قتل أولادهم ،
وسياتى فى آخر هذه السورة . وأما سبب وأدهم للبنات فقد جاء فى الأخبار
أنهم كانوا يئدون البنات خوفا من أن يكبرن فيأتين بفاحشة يصيب الوالد عارها .

وقوله تعالى . (ليردوهم) ، أى ليهلكوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم ، أى يخلطوا
الحق بالباطل . وقد ثبت بالتجارب التى لا تدع للشك بحال أن دين الحق متى
بدل بخلطه بالبدع وتحريف إعراضه يكون ضرره أكثر من نفعه ، هذا اذا بقى
فيه نفع . وأصدق دليل على ذلك حال المسلمين عامة ، والعرب خاصة . فقد تحير
الباحثون من الأوربيين فى شأنهم حتى قال بعضهم : أنه يكاد يشك فى كون هذا

الجيل من المسلمين والعرب هم أبناء أولئك الذين أدهشوا العالم بعلومهم وأعمالهم .
 وقوله تعالى (ولو شاء ربك ما فعلوه) يدل ، كما قال أهل السنة أصحاب الحديث
 نصر الله وجوهمهم ، على أنه لا يقع في ملك الله إلا ما يشاءه مشيئة كونية
 قدرية . وهم يفرقون بين المشيئة القدرية والمشيئة الشرعية ، فهو سبحانه شاء
 للكافر أن يكفر وللفاجر أن يفجر ، ولكنه لم يرض ذلك ولم يشرعه . قال تعالى
 (فذرهم وما يفترون) أى دعهم مع اقترابهم فان وباله عائد عليهم ولاحق بهم .
 ثم قال تعالى : (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء
 بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها اقتراب عليه
 سيجزيهم بما كانوا يفترون : ١٣٩) (وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة
 لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم
 انه حكيم عليم . ١٤٠)

المفردات

قال الراغب : والحجر الممنوع منه بتحريمه .

والمعنى العام

قوله تعالى : (وهذه أنعام) الخ . اعلم أن المشركين الأولين من العرب
 كانت لهم شرائع ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان . فمن
 ذلك البجيرة ، وهى الناقة التى ولدت عشرة أبطن ، يبجرون أذنفا أى يشقونها ،
 ويسبونها فلا تركب ولا يحمل عليها ، ومن ذلك الحامى ، وهو الفجل من الإبل
 الذى ضرب ، فولد من ضرابه عشرة أبطن ، يقولون حمى ظهره ويحرمون ركوبه .
 ومنها أن الشخص منهم كان يقول اذا مرض ، مثلا ، إن شفيت فهذه الناقة

مأثبة . فإذا شفى يسيبها فلا تركب ولا تحلب ولا يحمل عليها . ومنها ، أنهم كانوا إذا ولدت الشاة أنثى فهمي لهم ، وإن ولدت ذكرا فهو لأهلهم ، وإن ولدت ذكرا وأنثى معا ، قالوا ، وصلت الأنثى أخاها ، فيحرمون ذبح الذكر من أجل ذلك . فالأنعام هي الإبل والبقر والغنم . وقوله (حرمت ظهورها) أى حرموا ركوبها ، وهى ما تقدم من البحيرة والسائبة والحامى . وقوله ، حجر ، أى محجورة محرمة ، لا يطعمها أى لا يأكل منها إلا من شاءوا ، وهم خدام الأصنام والرجال دون النساء . وقوله ، (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) هى التى يذبحونها أو ينحرونها للأصنام أو الأوثان ، لا يذكرون اسم الله عليها ، وإنما يذكرون اسم الأصنام . وقوله سبحانه ، وحرت ، يفهم منه أنهم كانوا يجعلون شيئا من الحرث والزرع لأصنامهم ويحرمونه على أنفسهم . ولم أجد فى التفاسير التى عندى تفضيلا فى شأن الحرث . وقوله ، اقترأ عليه . معناه أنهم كانوا ينسبون كل تلك البدع والضلالات الى الله ويجعلونها من دينه كذبا وبهتاناً . قال تعالى : (سيجزيهم بما كانوا يفترون) أى يعذبهم بسبب كذبهم عليه بنسبة ذلك اليه . ومثل هذا قوله تعالى فى سورة يونس (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آله أذن لكم أم على الله تفترون : ٦٠) وهذا يشمل كل من حرم شيئا برأى أو تقليد ليس عنده فيه دليل من كتاب الله ولا من حديث رسول الله ، وكذلك من أفتى فى شيء أنه حلال بدون دليل ، كالفقهاء الذين يحرمون المرأة على زوجها بلا برهان ويحلونها إذا حرمت بزعمهم ، أو حقيقة بتزويجها من المحلل الذين لعنه النبي ﷺ ولعن من رضى به وسماه التيس المستعار .

فمن عبد الله بن مسعود قال : لعن رسول الله ﷺ المحال والمحال له . رواه
احمد والسنائي والترمذي وصححه ، وفي الباب عن علي ، أخرجه الأربعة إلا
النسائي . . قوله تعالى : (وقالوا ما في بطون هذه الأنعام) الخ . قال ابن عباس :
فهو اللبن ، كانوا يجرمونه على إناثهم ويشربه ذكراهم . وكانت الشاة اذا
ولدت ذكرا ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وان كانت انثى تركت فلم تذبح ،
وإن كانت ميته فهم فيه شركاء ، فنهى الله عن ذلك . وقال الشعبي ، البحيرة
لا يأكل من لبنها الا الرجال ، وان مات منها شيء أكله الرجال والنساء . وقوله
تعالى ، (سيجزئهم وصفهم) معناه ، سيجزئهم جزاء وصفهم المكذوب على الله في
تحليل ما حرم وتحريم ما أحل . إنه حكيم ، له الحكمة البالغة في قدره وشرعه
واقواله وافعاله ، عليم بمصالح عبادته ، يحل لهم ما فيه خيرهم ، ويحرم عليهم ما
فيه ضررهم ، فلا يرغب عن نوعه إلا من سفه نفسه .

ثم قال تعالى : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما

رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين : (١٤١)

أخبر سبحانه أن أولئك المشركين ومن فعل فعلهم في قتل أولادهم وتحريم
ما رزقهم الله وإشراكهم بالله وإفترائهم عليه ما لم يشرعه قد خسروا أعظم
الخسران وضلوا أبعد الضلال ، وما كانوا مهتدين في علم الله ، فانه سبحانه عالم
في الأزل بما سيعملونه . عن ابن عباس قال : اذا سرك أن تعلم جهل العرب ،
فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الانعام : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم)
الخ . أخرجه البخاري في باب مناقب قريش من صحيحه . قال تقي الدين :
والعجب كل العجب من هذه النابتة الحقيرة التي تختلق للعرب الجاهليين الذين

يرأسهم أبوجهل مزايبا وفضائل وتفتخر بها وتدعو إلى حمية الجاهلية ، ثم تصدق
وتعرض عن الفضائل الحقيقية التي جاء بها محمد رسول الله عليه صلاة الله .
وهؤلاء ادعاء القومية العربية يتنكرون للشريعة الاسلامية والملة الخنيفية ولسيرة
أعظم مصالح وأكرم معلم وجد في تاريخ البشر ويتركون عروبتهم ودعوتهم الطاهرة
الطيبة المباركة ويدعون إلى عروبة ابي جهل الممجية الضالة المرذولة ويستبدلون
الذي هو أدنى بالذي هو خير بل يستبدلون السعادة الكبرى ويبيعونها بالشقاء
الأبدى ، ألا ساء ما يحكمون ، ولذلك أهبطهم الله من سماء العزة والكرامة الى
حضيض الذلة والندامة ولم يصلح لهم عملا ولا بلغهم أملا ، فهم على كثيرتهم
أذلاء ، وصدق الله العظيم الذي يقول في سورة المجادلة (ان الذين يحادون
الله ورسوله أولئك في الأذلين : ٢٠)

ثم قال تعالى : (وهو الذي أنشا جنات معروشات وغير معروشات ،
والنخل والزروع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابهه ، كلوا من
ثمره اذا أثمروا آتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين : ١٤٢) ومن
الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم
عدو مبين : ١٤٣) ثمانيه أزواج ، من الضان اثنين ومن المعز اثنين ، قل
الذكرين حرم أم الاثنيين ، أما اشتملت عليه ارحام الاثنيين ، نبوتى بعلم ان
كنتم صادقين : ١٤٤) ومن الايل اثنين ومن البقر اثنين ، قل الذكرين حرم
أم الاثنيين ، أما اشتملت عليه ارحام الاثنيين ، أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله
بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ، ان الله لا يهدي
القوم الظالمين : ١٤٥)

المعنى العام

قوله تعالى : (وهو الذى أنشأ جنات) الخ . فيه رد على المشركين الذين يأكلون خير الله ويعبدون غير الله ويزيدون على ذلك القول فى دين الله بلا علم فيحلون الحرام ويحرمون الحلال ، وكل ذلك ضلال . هو أى الله الذى خلق جنات من الأشجار المختلفة الأنواع ، بعضها يعرش ، أى تقام له أعمدة وخشب كالسقف يمتد عليه كالكرم الذى يحتاج الى ذلك ، وغير معروشات ، كالكرم الذى لا يحتاج الى عريش وسائر الأشجار التى تقوم على ساق . وخلق النخل ، وهو من أهم الأشجار وأكثرها نفعاً للإنسان . وخلق الزرع ، وهو كل نبات له حب يقتات به ، مختلفاً أكله ، أى يختلف فى طعمه كل نوع منه له طعم خاص به ، لأن الإنسان يجب التنقل ولا يصبر على طعام واحد . وخلق الزيتون والرمان متشابهاً فى الألوان والحجوم والأشكال ، وغير متشابهة فى الطعم والخواص وسائر المنافع . كلوا من ثمره اذا أثمر ، الأمر هنا للإباحة والامتنان وقيل لبيان أن ما يؤكل قبل الحصاد والجنى جائز لا يطالب المالك بزكاته ، والأحوط أن يعتبر بالخرس ، إلا اذا كان فى وقت أكله يتصدق بما لا يقل عن العشر . وآتوا حقه يوم حصاده ، قال ابن عباس وأكثر السلف : المراد به ، الزكاة المفروضة ، وقيل ما يسقط من السنبل يترك للفقراء ، وقيل اطعام المساكين يوم الحصاد والجذاذ . ولا تسرفوا فى الأكل ، فان الإسراف فيه ضرره عظيم . وخلق من الانعام حمولة ، أى ما يحمل عليه ، كالابل والبقر التى تطيق الحمل ، وفرشا ، وهو الحيران والعجماجيل التى لا تقسدر على الحمل والغنم . كلوا مما رزقكم الله . أمر بالإباحة وامتنان كما تقدم ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان فى التحليل

والتحرير من عند أنفسكم وفي البطر والطغيان وعدم شكر الله وفي اهمال المحافظة
 على ما خلق الله من الغذاء، فقد رأيت الرعاة في بسادية الجرائر يرمى بعضهم
 بعضا بالكأة بدل الحجارة. وهذا من اتباع خطوات الشيطان ومن الجهل
 والممجية النافية للرومة والإنسانية. فان الكأة تباع في المانيا مثلا بثمن اللحم
 وتعد بدلا منه. ولقد جلست للغداء ذات يوم في مطعم بمدينة برلين أعادها
 الله لسابق عهدا بتوحيد الشعب الالمانى على أساس العدل والانصاف، جلست
 للغداء ودعوت بطعام يتضمن الكأة، فلما جاء الغلام بالطعام قلت له مستنكرا لا أرى
 في هذا الطعام لحما فقال لى إن فيه الكأة. ولا يجمع بين اللحم والكأة في طعام
 واحد. وحدثنى شاهد عيان، أنه شاهد التلاميذ في القسم الداخلى في مدرسة
 مغربية يتضاربون بالخبز أثناء الأكل. فبالله للعجب من جهلهم وكفرهم لنعم الله
 فماذا تعلموا في المدارس اذا لن يعرفوا أدب الأكل ووجوب المحافظة على
 الطعام الذى هو قوام الحياة للبشر والحيوان. وأظن ان الاميين الذين لم يدخلوا
 المدارس أفضل من هؤلاء، لأنهم يحترمون الغذاء حتى ليكادون يقدسونه فاذا
 رأوا مثلا قطعة خبز ساقطة على الأرض بادروا الى رفعها وقبلوها وخافوا شديدا
 من عقاب الله. وقد اتفق الأدب المحمدى والأدب العالمى على وجوب المحافظة على كل
 ما فيه غذاء للانسان. فعن جابر قال، سمعت النبي ﷺ يقول، ان الشيطان يحضر
 أحدكم عند كل شىء من شأنه حتى يحضره عند طعامه، فاذا سقطت من أحدكم
 اللقمة فليمط ما كان بها من أذى ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان. ان، فاذا فرغ
 فليلق أصابعه، فانه لا يدري فى أى طعامه البركة. رواه مسلم. وعنه أيضا،
 أن النبي ﷺ أمر بلىق الأصابع والصحفة، وقال، انكم لا تدرسون فى أية البركة

رواه مسلم . فمن لا يحترم الطعام ولا يحافظ عليه هو بحق عدو للإنسانية .
ومن دواعي الأسف ان هذا الخلق ، وهو احترام الطعام المأخوذ من قوله
تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) لا يوجد الا عند الأوربيين ، فانهم اذا
أكلوا في اثناء لا يضعون فيه من الطعام إلا على قدر ما يأكلون ويتركونه
نظيفا ، بخلاف الذين يدعون الاسلام فانهم يضعون لثلاثة من الآكلين مثلا ما
يشبع عشرة ، فبأكلون بعضه ويتركون بعضه الآخر مخلوطا بالعظام التي أكلوا
لحمها ، فاما أن يقدموا الفضلة لمن يحتقرونه فبأكلها على مضض مضطرا الى
أكلها ، واما ان يتركوها الى أن تبقى في المزابل . فان قلت ، ألم يكن النبي ﷺ
وأصحابه يستفضلون ، قلت بلى ، ولكن النبي ﷺ عليهم أن يأكلوا مما يليهم والأ
يأكلوا من رأس الثريد ، وهو وسط القصة ، بل كانوا يأكلون من أطرافه
ويبقى ما لم يأكلوه نظيفا . وقوله تعالى : (انه لكم عدو مبين) ، هو كقوله تعالى
في سورة فاطر (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا
من أصحاب السعير) قوله تعالى : (ثمانية أزواج) ، أي ثمانية أصناف خلقها الله
تعالى لعباده ، من الضأن اثنين ، وهما الكبش والنعجة ، ومن المعز اثنين وهما
التيس والمعز . قل يا محمد ، أحرم الله الذكركين من الغنم ، وهما الكبش والتيس ،
أم حرم الاثنيين ، وهما النعجة والمعز ، أم حرم ما ضمنته ارحام الاثنيين ، وهو
لا يخلوا أن يكون ذكورا او اناثا ، فان قلت انه حرم الذكركين وجب تحريم
جميع الذكور ، وإن قلت انه حرم الاثنيين وجب تحريم جميع الاثناث وان قلت
انه حرم ما في بطونهما وجب تحريم الذكور والاثناث جميعا ، لأن بطونهما تشتمل
عليها كلها . وقوله تعالى : (نبؤوني بعلم إن كنتم صادقين) ، أي أقيموا البرهان
على تحريم ما زعمتم انه حرام ، فان الدعوى بلا حجة باطلة .

والدعاوى ما لم تقيموا عليها بينات ابتأوها أذعيا .
 وخلق من الابل اثنين ، وهما الجمل والناقة ، ومن البقر اثنين ، وهما الثور
 والبقرة . ويقال في الابل والبقر ما قيل في الضأن والمعز من المناظرة المفجعة
 التي أحرصت ألسن المشركين وأقمتهم الأحجار وكشفت لهم فساد دينهم وأنه
 مبنى على غير أساس من العقل والعلم . وقوله تعالى : (أم كنتم شهداء) ، إلى توبيخ
 لهم والزام لتناقضهم ، لأن التحليل والتجريم لا يكونان إلا من الله ولا سجيل
 إلى معرفتهما إلا بطريق الوحي ، وهم ينكرونه ولا يصدقون به ، فمن أين جاءهم
 ذلك التشريع الباطل . ومعنى شهداء ، حاضرين . ووصاكم ، أمركم . ولما تبين كذبهم
 قال تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) الخ . وكل كاذب ظالم ، ولكن
 أظلم الظالمين هو الذى يكذب على الله فيحرم بلا دليل ويحل بلا دليل .

قال الخازن : ويدخل في هذا الوعيد كل من كان على طريقتهم أو ابتدع
 شيئا لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك إلى الله تعالى : لأن اللفظ عام
 فلا وجه للتخصيص ، فلكل من أدخل في دين الله ما ليس فيه فهو داخل في هذا
 الوعيد . (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) يعنى : ان الله لا يرشد ولا يوفق
 من كذب على الله وأضاف إليه ما لم يشعه لعباده .

ثم قال تعالى : (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن
 يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أفسقا أهل لغير الله به
 فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم : ١٤٦)

المعنى العام

قوله تعالى : (قل لا أجد فيما أوحى إلى) الخ . الطاعم : الأكل . والميتة ، ما
 مات من الحيوان حتف أنفه بلا ذكاة . والدم المسفوح ، دم المذبح والجروح ،

وكل ما أسيل بفصد أو طعن. ولحم الخنزير رجس، أى نجس وخبيث، خلقه الله كذلك لا يطهر أبداً. (وما أهل لغير الله به)، ما ذبح لغير الله كيفما كان، ولو ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو قبره. أو أثار من آثاره، وتقدم الكلام على ذلك. وظاهر الآية: أنه لا يحرم من الحيوان إلا ما نصت عليه الآية، وهو هذه الأربعة، وفي ذلك اشكال، إذ لا شك أن النبي ﷺ حرم غير ذلك. قال الخازن: ولهذا اختلف العلماء في حكم هذه الآية، فذهب بعضهم إلى ظاهرها، وأنه لا يحرم شئ من سائر المطهومات والحيوان إلا ما ذكر في هذه الآية. يروى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير، وهو ظاهر مذهب مالك واحتجوا على ذلك بأن هذه الآية محكمة، لأنها خبر، والخبر لا يدخله النسخ. واحتجوا بأن هذه الآية: وإن كانت مكية، لكن يعضدها آية مدنية، وهى قوله تعالى في سورة البقرة: (إنا حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) وكلية إنما تفيد الحصر، فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المكية في الحكم. وذهب جمهور العلماء إلى أن هذا التحريم لا يختص بهذه الأشياء المنصوص عليها في هذه الآية، فإن المحرم بنص الكتاب، هو ما ذكر في هذه الآية. وقد حرمت السنة أشياء فوجب القول بها، منها تحريم الخمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع، ومخلب من الطير. عن المقدم بن معديكرب قال قال رسول الله ﷺ: ألا عسى رجل يبلغه الحديث عنى وهو متكئ على أريكته فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرمتناه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله تعالى. أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب. ولأبي داود قال قال رسول الله ﷺ: ألا

انى أوتيت الكتاب ومثله معه . ألا يوشك رجل شبعان على أربكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الخمر الأهلئ ، ولا كل ذئ ناب من السباع ، ولا لقطه معاها إلا أن يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعلمهم أن يقروه ، فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قرأه . عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا ، فبعث الله نبيه ﷺ وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه ، فيما أحل فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو معفو ، وتلا (قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) ، الآية : أخرجه أبو داؤد وروى مسلم عن ابن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ عن كل ذئ ناب من السباع ، وكل ذئ مخلب من الطير . وروى مسلم أيضا عن أبئ هريرة أن النبئ ﷺ نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية . وروى البخارى ومسلم عن جابر أن النبئ ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى الخيل . ثم قال الخازن : والأصل فى ذلك عند الشافئ أن كل ما لم يرد فيه نص بتحريم أو تحليل ، فما كان أمر الشرع بقتله كما ورد فى الصحيح ، خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم هى الحية والعقرب والفارة والحدأة والكلب المقور . وعن سعد ابن أبئ وقاص أن النبئ ﷺ أمر بقتل الوزغ . أخرجه البخارى ومسلم ، وسماه فويسقا . وعن ابن عباس قال : نهى النبئ ﷺ عن قتل أربع من الدواب ، النملة والنحلة والهدهد والصرد . أخرجه أبو داؤد . فهذا كله حرام لا يحل أكله ، وما سوى ذلك فالمرجع فيه الى الأغلب من عادة العرب ، فما يستطيه الأغلب منهم فهو حلال ، وما يستخبئه الأغلب منهم ولا يأكلونه فهو حرام ، لأن الله خاطبهم

بقوله ، أحل لكم الطيبات ، فما استطابوه فهو حلال ، فهذا تقرير ما يحل وبمحرم
من المطعومات .

قال تقي الدين : معاذ الله أن تكون اذواق العرب أو أكثرهم ميزاننا
ومعيارا للتجليل والتحرير في دين الله ، بل كل ما لم يرد الكتاب أو السنة
بتحريمه من الحيوان فهو حلال . وكيف تكون اذواق العرب مقياسا للتجليل
والتحرير ، وهي تختلف في القبيلة الواحدة والبلد الواحد . والنبي ﷺ نفسه
عاف أكل الضب وكرهه بطبيعته ، لأنه لم يكن بأرض قومه ولم يحرمه . فلم
يجعل النبي ﷺ ذوقه وطعمه وعادته مقياسا للتجليل والتحرير ، فكيف يجعل طبع
غيره مقياسا لذلك . وهذا أصل غير صحيح بنى عليه الشافعية مسائلهم . فلذلك
كثر اختلافهم في أنواع الحيوان . ولم يتفقوا في أكثر ذلك . ومن يقرأ
كتاب حياة الحيوان للدميري يجد من ذلك العجب للعجاب . وهذا ان ثبت عن
الشافعي ، فهو رأى لا حجة فيه . فروى صالح بن محمد العمري الفلاني في كتابه ،
ايضا هم أولى الأبصار ، للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار ، بسنده المتصل
الى الربيع بن سليمان قال : سمعت الشافعي - وسأله رجل عن مسألة - فقال
يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال كذا وكذا ، فقال له السائل : يا أبا عبد الله
أقول بهذا ؟ فارتعد الشافعي واصفر وحال لونه ، وقال ويحك ، وأي أرض
تقلني ؟ وأي سماء تظلني ؟ اذا رويت لرسول الله ﷺ شيئا ولم أقل به ؟ نعم
على الرأس والعين . قال سمعت الشافعي يقول : ما من أحد إلا وتذهب عليه
سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه . فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه
عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت ، فالقول ما قاله رسول الله ﷺ ، وهو قولي ،
قال ، وجعل يردد هذا الكلام .

وعن أبي ثعلبة الخشني عن النبي ﷺ قال : إن الله فرض فرائض فلا تعدوها ، وحد حدودا فلا تقربوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها . قال النوى في الأربعين : حديث حسن رواه الدارقطني وغيره ، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : وقد روى معنى هذا الحديث مرفوعا من وجوه أخر ، خرجه البزار في مسنده والحاكم من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينس شيئا ، ثم تلا هذه الآية : (وما كان ربك نسيا) وقال الحاكم صحيح الإسناد ، وقال البزار إسناده صالح . وقد خرجه الطبراني والدارقطني من وجه آخر عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ بمثل حديث أبي ثعلبة . وخرجه الترمذي وابن ماجه من رواية سيف بن هارون عن سليمان التيمي عن أبي عثمان عن سلمان قال : سئل رسول الله ﷺ ، عن السدن والجبن والفرا ، فقال الحلال ما أحل الله في كتابه ، والحرام ما حرم الله في كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه . وأخرج أبو داود عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا ، فبعث الله نبيه ﷺ وأنزل كتابه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، فما أحل فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، ثم تلا هذه الآية ، (قل لا أدينها أوحى الى محرما) .

ثم قال الخازن : وأما الجواب عن هذه الآية الكريمة فمن وجوه ، أحدها أن يكون المعنى ، لا أجد محرما مما كال أهل الجاهلية يحرمونه من البحاث والسوائب وغيرها الا ما أوحى الى في هذه الآية . الوجه الثاني أن يكون المراد

وقت نزول هذه الآية ، ام يكن محرما غير ما ذكر ونص عليه في هذه الآية ، ثم حرم بعد نزولها أشياء أخرى . الوجه الثالث ، يحتمل أن هذا اللفظ العام خصص بدليل آخر ، وهو ما ورد في السنة . قال تقي الدين : وأنا أختار الوجه الثاني . وقد فهمته واختبرته قبل أن أطلع عليه في هذا الكتاب ، وكنت أظن اني لم أسبق إليه . وبيان ذلك أن الفعل المضارع اذا دخلت عليه (لا) النافية تمينه للحال . واذا علمنا أن هذه السورة مكية اتضح لنا أنه لم يكن في ذلك الوقت الذي نزلت فيه السورة شيء محرم من الحيوان وما يؤخذ منه إلا هذه الأربعة . والمقصود بهذا الرد على أولئك المشركين الذين حرموا تلك الأنعام أفراء على الله فلا يمنع ذلك أن تحرم بعد ذلك أنواع أخرى من الحيوان كسباع الوحش وسباع الطير .

لما بين الله سبحانه وتعالى تلك المحرمات رخص فيها للضطر الذي لا يجد ما يأكل غيرها اذا لم يكن باغيا بأن يأكل ذلك شهوة ، ولا عاديا ، أى متجاوزا للحد بأن يأكله بعد وجود القوت الحلال ، فان الله غفور ، يغفر له أكله . ورحيم به اذا لم يتركه يموت جوعا .

ثم قال تعالى : (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحرمهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وأنا لصادقون : ١٤٨)

المفردات

الحوايا جمع حاوية ، أو حاويات ، أو حوية . فالأول على وزن ضاربة . والثاني على وزن قاصعاه . والثالث : على وزن سفينة ، وهي الأمعاء ، سميت بذلك لأنها تحوت ، أى استدارت ،

أخبر سبحانه أنه حرم على اليهود خاصة كل ذى ظفر . اختلفت عبارات
المفسرين فى تفسير الظفر . قالوا : هو ما لم يكن مشقوق الأصابع ، كالبعير والنعامة
والإموزة . وقال بعضهم : هو كل ذى مخلب من الطير وكل ذى حافر من الدواب .
وسمى الحافر ظفرا على الاستعارة . قوله تعالى : ومن البقر والغنم حرمتنا عليهم
شحومها . فبرت الشحوم المحرمة هنا بشحم الشرب والكهاتين ، لأنه لا يتصل
بعظم . واستثنى من ذلك ما حملت ظهورهما ، أى ما اتصل بها من الشحم . قالوا
ومن ذلك شحم الألية ، لأنه متصل بأسفل عظم الظهر . أو الحوايا ، والمراد بها
المباعر ، واحدها ، مبر ، وهو مصير يجتمع فيه البعر ويكون فيه شحم كثير إذا
كان الحيوان سمينا . أو ما اختلط بعظم ، وهو الشحم المختلط بالعظام ، كشحم
العين والرأس . وقوله تعالى : (ذلك جزيتاهم ببغيهم) . يعنى ذلك التضيق ، إجماعا
وقع بسبب بغيهم ، أى ظلمهم لأنفسهم بمخالفتهم أمر الله . (وإنا لصادقون) ،
فما أخبرنا به وعادلون فى جزائنا لهم . يوضح ذلك قوله تعالى فى سورة النساء
(فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ويصدّم عن سبيل الله
كثيرا . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلمهم أموال الناس بالباطل واعتدنا
للكافرين منهم عذابا أليما : ١٦١ ، ١٦٢) وأخرج البخارى ومسلم عن ابن عباس
قال : بلغ عمر بن الخطاب أن سمرة باع خمرا ، فقال : قاتل الله سمرة ، ألم يعلم
أن رسول الله ﷺ قال : لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجعلوها فباعوها .
وقوله (جعلوها) ، أى أذابوا الشحوم واستخرجوا منها الدهن وباعوه . ومن هنا
نعلم أن كلبا لا يجوز للمسلم أن يأكله لا يجوز له أن يبيعه كالخمر والميتة والخنزير ،
لأن أكل ثمنه كأكله . وفى رواية للجماعة عن جابر بن عبد الله قال : سمعت

رسول الله ﷺ يقول عام الفتح ، ان الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام ، فقيل يا رسول الله : رأيت شحوم الميتة فانها يمدن بها الجلود ويظلى بها السفن ويستصبح بها الناس ، فقال ، لا ، هو حرام ، ثم قال رسول الله ﷺ قاتل الله اليهود ، ان الله لما حرم عليهم شحومها جعلوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه . وروى أحمد وأبو داود عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ قاعدا في المسجد مستقبلا الحجر فنظر إلى السماء فضحك ، قال : لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها ، وان الله اذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه .

ثم قال تعالى : (فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين : ١٤٨)

المعنى العام

يقول سبحانه : فان كذبك المخالفون لك من أهل الكتاب والمشركين ، فقل لهم ، ربكم ذو رحمة واسعة لا يعجل العقاب لمن كذب رسله ، ولكنه يمهل ، ولا يهمل ، ولا يرد عذابه عن القوم المجرمين متى حان وقته . ومثل ذلك قوله تعالى في آخر هذه السورة (ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) ثم قال تعالى : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرسون : ١٤٩) (قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين : ١٥٠) (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فان شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين

كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة، وهم بربهم يعدلون: (١٥١)

المعنى العام

هذا إخبار من الله تعالى بما سيقوله المشركون في محاجتهم ومجادلتهم للنبي ﷺ، فإنهم يحتجون بقدر الله ومشيتته الكونية على شرعه وأمره، وهذه مغالطة وتكذيب تحت ستار الجدال والمراوغة. وجواب هذه الشبهة، أن الله أراد أن يكونوا مشركين وعلم بذلك قبل أن يخلقهم أنهم سيختارون الباطل ويتركون الحق. ومقتضى حكمته، أنه لا يجبر أحدا على طاعة ولا على معصية، بل يعطيه الاختيار ويأمره بالطاعة وينهاه عن المعصية، فإن اختار الطاعة لطف به وأعانته، وإن اختار المعصية واتبع هواه خذله ووكله الى نفسه. ومثل هذا قوله تعالى في سورة الزخرف: (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون: ٢١) فسمى الله احتجاجهم بالمشيئة الكونية تكديبا، لأن الخرص هو التكذيب. وبيان ذلك أن المشرك والعاصي حين يعزم على الشرك والمعصية لا يكون عالما بمشيئة الله لذلك الشرك أو تلك المعصية، وإنما يكون شاعرا بالاختيار ومدفوعا بالهوى، وإنما يعلم أن الله شاء ذلك بعد وقوعه، فاحتججه بمشيئة الله التي كان يجهلها مغالطة ومراوغة، وذلك عين التكذيب، فشرکہم بالله وتجریمهم لما أحل الله ناشدان عن اتباعهم للهوى، وعلى ذلك يذيقهم الله بأسه كما أذاق المكذبين من قبلهم عذابه. ولذلك قال تعالى (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا). ثم قال تعالى: (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا)، أى قل لهم يا محمد هل عندكم علم جاءكم من الأنبياء السابقين أو برهان عقلى على شرككم وتجریمكم لما أحل الله فتظهوره لنا لتقيموا به حججتكم الداحضة ودعواكم

الباطلة؟ كلا. إن تتبعون إلا الظن والأوهام وما أنتم إلا تكذبون. ثم أمر سبحانه نبيه أن يقول لهم . فله الحجة البالغة الكاملة ، فلو شاء هدايتكم بإخباركم على اتباع الحق وسلب الاختيار منكم لهداكم أجمعين ، ولم يستطع احد منكم الخروج عما أراده له . ثم قال تعالى مخاطبا نبيه ، (قل لهم) ، أى هاتوا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا الذى تحرمونه من الحرث والأنعام . ثم قال تعالى مخاطبا رسوله ، فان شهد شهودهم بذلك ، فانما شهدوا زورا واتبعوا أهواءهم فلا تشهد أنت معهم ولا تتبع أهواءهم فانهم هم المكذبون بآيات الله الذين لا يؤمنون بالجزاء الآخروى ، وهم يشركون بالله غيره لسفاهتهم وجهلهم . ثم قال تعالى : (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون : ١٥٢)

المعنى العام

أمر الله نبيه أن يدعو أوائك المشركين الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله أن يأتوه ليقرأ عليهم ما حرمه الله عليهم يقينا بوحى لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . الأول الشرك بالله . وقوله تعالى : (ألا تشركوا) ، مؤول . قال ابن كثير : وكان فى الكلام محذوفا دل عليه السياق ، وتقديره ، وأوصاكم ألا تشركوا به شيئا ، لهذا قال فى آخر الآية ، (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون :)
وكما قال الشاعر :

حج وأوصى بسليمى الأعبدا ان لا ترى ولا تكلم أحدا

ولا يزل شرابها مبردا

وتقول العرب : أمرتك أن لا تقوم . وقوله تعالى : (وبالوالدين إحسانا) ،
 أى حرم عليكم عقوق الوالدين وأوصاكم أن تحسنوا إليهما إحسانا كثيرا . وحرم
 عليكم قتل أولادكم من أجل الفقر الذى أنتم فيه ، فإن الله هو الذى يرزقكم
 ويرزقهم ، إن قتلهم ذنب عظيم . وحرم عليكم فعل المعاصى ما ظهر منها بحيث يراه
 الناس وما خفى بحيث لا يراه الناس . وكانت العرب ، لا تستبجح الزنا إلا اذا
 كان ظاهرا ، وتساهل فيه اذا كان سرا ، فأخبرهم الله ببطلان ما كانوا عليه
 وأنه حرام سرا وعلانية . وحرم عليهم قتل النفس بغير حق ، وهو الثيب الزانى ،
 والنفس بالنفس ، والتارك لدينه ، المفارق للجماعة . ذلكم المذكور من المعاصى
 وصاكم بتركه لتعقلوا عنه أوامره ونواهيه وتطيعوه لتهدوا وتسعدوا .

الأحاديث المناسبة لتفسير هذه الآية

الأول : عن ابن مسعود قال : من أراد أن ينظر الى وصية رسول الله
 ﷺ التى عليها خانمه فليقرأ هذه الآيات ، (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم
 عليكم ألا تشركوا به - الى قوله - لعلمكم تتقون) . رواه الترمذى وحسنه
 الثانى : أخرج الترمذى وحسنه عن عبادة بن الصامت قال ، قال رسول الله ﷺ : أياكم
 يبأيبنى على ثلاث ثم تلا رسول الله ﷺ (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم)
 حتى فرغ من الآيات ، فمن وفى فأجره على الله ، ومن انتقص ممن شيئا فأدركه
 الله به فى الدنيا كانت عقوبة ومن أخر إلى الآخرة ، فأمره الى الله ، إن شاء
 عذبه وإن شاء عفا عنه . الثالث : وفى الصحيحين عن أبى ذر قال قال رسول الله
 ﷺ : أتانى جبريل فبشرنى ، انه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة . قلت
 وإن زنى وإن سرق قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت وإن زنى وإن سرق ، قال :

وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق ، قال : وإن زنى وإن سرق ،
وإن شرب الخمر . الرابع : أخرج مسلم في صحيحه عن ابن مسعود من مات لا يشرك
بالله شيئا دخل الجنة .

قال تقي الدين : وقد قرن الله توحيدَهُ بِبرِ الوالدين في غير ما آية من
كتابه ، قال تعالى في سورة النساء (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين
إحسانا : ٣٧) ومثل ذلك في سورة البقرة والعنكبوت ولقمان والاسراء
والاحقاف . ومن المعلوم أن توحيد الله هو أفضل ما عبد الله به . فلما قرن
الله بر الوالدين به علمنا أنه يليه في المنزلة . وبيان ذلك أن نعمة الایجاد والامداد
هي من الله وحده فهو الخالق البارئ المصور ، فشكره أوجب الواجبات وأعظم
الفرائض والقربات . ولما كان الوالدان هما سبب وجود الانسان كان شكرهما
بعد توحيد الله أفضل الأعمال وأعظم الواجبات . ولم نر دينا يباليغ في الحث
على بر الوالدين مثل دين الاسلام ، وذلك بما فضل الله به المسلمين على غيرهم
حتى ان الرجل من ذوى المراتب العالية ، وقد بلغ سن الشيخوخة يطيع والديه
ويخدمهما بنفسه ويتذلل لهما كما أمره الله تعالى بقوله (واخفض لهما جناح
الذل من الرحمة . الاسراء : ٢٥) ومن سوء حظ المسلمين وشقاوتهم إعراضهم
عن كتاب الله وسنة رسوله ، وتسليمهم اولادهم الى مدارس فارغة من الآداب
الاسلامية والأخلاق العالية ، فيخرج فيها اولادهم في غاية العقوق والاحتقار
لوالديهم والتكبر عليهم . ولقد رأيت امرأة فقيرة تخدم الناس في بيوتهم بغسل
الثياب وغيرها ، اخبرني أنها تزوجت برجل فرزقت غلاما منه ولم يلبث أن
طلقها ولم ينفق عليها ولا على ولدها شيئا ، لأنه كان فقيرا معدما ، فلم تنزل

تكدرح التربية ذلك الغلام والنفقة عليه وأدخلته المدرسة ، وهي في حاجة الى خدمته
 وتحملت المشاق في تحصيل النفقة انتهى له كل ما يحتاج اليه من طعام وثياب
 وكتب وأدوات الكتابة ، فلما بلغ سن التمييز أخذ يشتمها ، ولما بلغ الثالثة
 عشرة صار يضربها ، وهذا جزاء من يسلم أولاده لمثل تلك المدارس بدل أن
 يعليه كتاب الله وسنة رسوله .

الخامس : أخرج البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله
 ﷺ أى العمل أفضل قال : الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى قال ، بر الوالدين ،
 قلت ثم أى قال ، الجهاد فى سبيل الله ، قال ابن مسعود ، حدثنى بهن رسول الله
 ﷺ ولو استزدته لزدنى . السادس : أخرج البخارى ومسلم من حديث ابن
 مسعود أنه سأل رسول الله ﷺ أى الذنب أعظم ، قال ، أن تجعل لله ندا
 وهو مخلوقك ، قلت ثم أى قال ، أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت ثم
 أى قال ، أن تزانى حليلة جارك ، ثم تلا رسول الله ﷺ (والذين لا يدعون
 مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون :) ،
 السابع : أخرج البخارى ومسلم عن سعد بن عبادة أنه قال ، لو رأيت مع
 إمرأتى رجلا لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال :
 أتعجبون من غيرة سعد ، فوالله لأننا أغبر من سعد والله أغبر منى ، من أجل
 ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

الثامن : أخرج البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله
 ﷺ لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا
 بإحدى ثلاث ، الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه ، المفارق للجماعة ،

التاسع : قال ابن كثير : وقد جاء النهى والزجر والوعيد في قتل المهاد وهو المستامن من أهل الحرب . فروى البخارى عن ابن عمر عن النبي ﷺ مرفوعا . من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وان ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما . (فائدة) قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى هنا : (ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم) . وفي سورة الاسراء ، (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم وإياكم) . فقدم الكاف على الهاء في سورة الانعام ولم يذكر الخشية . وفي سورة الاسراء ذكر الخشية وقدم الهاء على الكاف . فمعنى آية الانعام موجه إلى من كان لهم أولاد فسأرادوا قتلهم ، لأنهم فقراء ، وظنوا أن قتلهم ينقذهم من الاملاق ، وهو الفقر ، أو يقلل من فقرهم . والخطاب في آية الاسراء موجه إلى الوالدين الذين ليسوا فقراء ولكنهم يقتلون أولادهم خوفا من الفقر الذى يتوقعونه بسبب أولئك الأولاد إذا لم يقتلوهم ، فلذلك قال في الآية الأولى ، نحن نرزقكم الآن ونرزقهم أيضا . فقتلهم لا يدفع عنكم فقرا ولا يوفر لكم رزقا . وقال في الآية الأخرى ، نحن نرزقهم كما رزقناكم فلا تقتلوهم خوف الفقر فان برزقهم مضمون كرزقكم ، والله أعلم .

المعنى العام

ثم قال تعالى : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي احسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفسا إلا وسعها . وإذا قلتم فاعدلوا ويولكان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون : ١٥٣) قوله تعالى ، (ولا تقربوا مال اليتيم) ، يعنى لا تتصرف فيه بأى نوع من أنواع التصرف إلا بقصد الإصلاح والحفظ والتوفير لا بقصد التحيل على أكله يوضح ذلك آية

النساء ٧ (وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم
أموالهم ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا، ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا
فليأكل بالمعروف، فاذا دفعتم اليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا: ٧) فيجب
على وصي اليتيم وولي أمره أن يحافظ على ماله كما يحافظ على مال أولاده
ويفعل معه ما يجب أن يفعل الناس مع أولاده لو مات وتركهم ضعافا. قال تعالى
في سورة النساء (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا . خافوا عليهم
فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا : ١٠) ومن فضائل هذا الكتاب الكريم وهذا
الدين القيم انه بالغ كل المبالغة في حث الناس على العناية باليتيم ، وهو كل طفل
أو طفلة فقد أباه وهو دون البلوغ ، فلم يكتف القرآن بالنهي عن أكل مال
اليتيم ولا بالأمر بالمحافظة على ماله حتى أمر بإكرامه . قال تعالى في سورة
الفجر بعد ما ذكر حال الانسان الكافر والفاجر الذي تبطره النعمة ويؤتسه الفقر ،
اذ حكى الله عنه قوله (فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول
ربي أكرمن . وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن) قال تعالى
ردا عليه وزجرا له (كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين)
فلماذا أمر بإكرام اليتيم واكتفى بفرض الحض على طعام المسكين ، ولم يأمر
بإكرامه ؟ الجواب ، لأن المسكين اذا كان بالغاً ، والمسكين اذا كانت بالغه يكفيهما
الإطعام ، وفي معناه الكسوة والإسكان وعلاج المريض وتعليم الجاهل ، وهذا
هو الضمان الاجتماعي الذي فهمه عمر بن الخطاب من كتاب الله وسنة رسوله ،
فأمر عماله بتطبيقه ، روى عنه ذلك الامام ابن حزم في كتابه المحلى . أما قادة
أوروبا وأمريكا فلم يهتدوا الى الضمان الاجتماعي إلا في هذا الزمان . أما اليتيم

فلا يكفيه ذلك ، بل يحتاج إلى العطف والحنان والتكريم ، فمضى ذلك أن يدوض له بعض ما فقد من حنان والده . فهذا هو السر في الأمر بإكرام اليتيم . وإكرام اليتيم وإطعام المسكين على الوجه المتقدم هو المعيار الذي يوزن به تقدم الأمم ، فإن كل أمة تبذل جهودها في إكرام اليتيم وإطعام المسكين ، تكون مرزوقة رزقا واسعا ومنصورة على أعدائها لقول النبي ﷺ وإنما تنصرون وترزقون بضعفاتكم ، رواه النسائي . وهذا أمر مشاهد في كل زمان ومكان ، وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا . وكل أمة تضيع اليتيم والمسكين تكون مخذولة مقدورا عليها رزقها ذليلة خائفة شقية ، بأسها بينها ، والنوفيق بيد الله .

وقوله سبحانه : (حتى يبلغ أشده) ، معناه ، حتى يبلغ الحلم ويكون رشيدا كما نصت عليه آية النساء المتقدم ذكرها . وقوله تعالى : (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) . الكيل يكون بالمد والصاع بمثلته إلى أن يعلوه المكيل من الحبوب وغيرها ثم يمسح . والميزان معروف . وإيفاء الكيل والوزن برهان على الأمانة وحب العدل والانصاف والنصح ، وهو من مكارم الأخلاق التي بها تسود الأمم وتعر وتسهل ، وبفقدتها تفقد سيادتها فتستعبد وتذل وتشتق في كل زمان ومكان . سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا . وإذا كانت كلمة لبيد :

الأكل شئ ما خلا الله باطل

أصدق كلمة قالها شاعر كما في البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة عن

النبي ﷺ : فان قول شوقي :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

يل كفة لبيد في الصدق . وقد أوعد الله الذين ينقصون الكيل والميزان بشدة العذاب في الدنيا والآخرة فقال في مفتح السورة الثالثة والثمانين : (٨٣) من كتابه العزيز (ويل للطففين : الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون : ٢ ، ٣) (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون : ٤) ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم : ٥ ، ٦ يوم يقوم الناس لرب العالمين : ٧) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية ، وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يخسون المكيال ، وفي كتاب الجامع لأبي عيسى الترمذي من حديث الحسين بن قيس أبي علي الدحي عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان ، انكم ولستم أمرا هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم ، ثم قال لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحسين ، وهو ضعيف في الحديث . وقد روى بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفا . قلت : وقد رواه ابن مردويه في تفسيره عن حديث شريك عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس قال قال رسول ﷺ : انكم معشر الموالي قد بشركم الله بخصلتين بهما هلكت القرون المتقدمة ، المكيال والميزان .

وقوله تعالى : (لا تكلف نفسا إلا وسعها) رفع للجرح في الكيل والميزان كما في غيرهما فمتى عقد الكائل والوازن العزم على الإيفاء واحتاطا في ذلك وبذلا جهدهما فأخطأ ، وهما لا يعلمان ، فلا لثم عليهما . ولما كنت في قبيلة أيت اسحاق ، وأنا غلام ، رأيتهم يقترضون السكر وغيره من الموزونات ، بأن يأخذ أحدهم عصا ويربط في طرفها عمامة ويضع القطعة التي يراد وزنها مصرورة في طرف العمامة المتدلى ويحمل العصا على إصبعه ، فإذا استوى طرفاها سلم الموزون الى المقترض . ثم يؤدي له ذلك بالطريقة نفسها . ففي مثل

هذه الحال يجب على الوازن والكامل الاحتياط وبذل الجهد ولا حرج عليه بعد ذلك . ومن هذا الباب الكيل بالحفنة ، والوزن بالقيان ، وهو الميزان الكبير الذي توضع فيه مآت الارطال دفعة واحدة ، يحتاط الصادق الناصح ويغش الكاذب المخادع . وبهذا الايضاح تبين الحكمة في قوله تعالى : (لا تكلف نفسا إلا وسعها) .

وقوله تعالى : (واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) . كقوله تعالى في سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين : ١٣٦) أمر الله المسلمين أن يقولوا كلمة الحق وأن يشهدوا بالحق ولا تمنعهم من ذلك رغبة ولا رهبة . وهذا خلق آخر عظيم من مكارم الأخلاق التي لا تصلح جماعة بدونها ، وهو أخ شقيق لما تقدمه من إيفاء الكيل والميزان ، سواء أكان الكائل والوازن قابضا أو معطيا ، وهنا أيضا سواء أكان القول والشهادة يعودان على القائل بالنفع أم بالضرر ، يجب عليه أن لا يجسد عن الحق . فهذان الخلقان من الدعائم التي تبنى عليها سعادة الأمم والشعوب ، والعجب كل العجب أن أكثر المسلمين في غفلة عن ذلك فتعوز بالله من الخذلان . قوله تعالى : (وبعهد الله أوفوا) . تكرر الحث في كتاب الله على الوفاء بالعهد والوعد بعبارات في التوكيد أقص الغايات . فمن ذلك قوله تعالى في سورة الاسراء : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مستولا : ٣٥) وقال تعالى في سورة البقرة : (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون : ٢٧ ، ٢٨) وقال تعالى في سورة الرعد (والذين ينقضون

عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض،
أوائك لهم اللعنة ولهم سوء الدار: ٢٦) وقال تعالى في سورة مريم في الثناء
على اسماعيل (واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادقا الوعد وكان رسولا
نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا : ٥٥ ، ٥٦) والآيات
في ذلك كثير تصریحة . وليعلم من لا يعلم أن الوفاء بالعهد والوعد فرض على كل
مسلم ، سواء أكان المعاهد والموعود مسلما أم غير مسلم . ومن نقض العهد أو
أخلف الوعد فقد ارتكب كبيرة يذهب بها ثلث إيمانه . وقد تقدم الحديث
المتفق على صحته مرفوعا . آية المنافق ثلاث ، اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ،
واذا أوتى من خان . وفي الرواية التي انفرد بها مسلم ، وان صلى وصام وزعم أنه
مسلم . وهذا خلق ثالث يضاف إلى الخلقين المتقدمين . وما أكثر مكابرة
الأخلاق في كتاب الله وسنة رسوله . فبأ لله عليكم هل يصدق عاقل أن أمة
تدين بدين هذه أركانها وتلك دعائمها يستطيع الشقاء العاجل أو الآجل أن يدنو
منها أو يحل بساحتها ، اللهم لا ثم لا . فهذه تسعة أركان ذكرت متواليحة في هذا
الموضع من كتاب الله جمعت الخير كله . لا جرم أن كل أمة كيفما كان لونها
تمسك بهذه الأركان وتعتقدها وتعمل بها لا بد أن تسود وتنعقد في عاجلها
وآجلها ، فلا نامت أعين الخائنين والمرتدين والمنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون
كبير مقنا عند الله أن يقولوا ما لا يفعلون . وإلى ذلك أشار سبحانه بقوله : (ذلكم
وصاكم به لعلكم تذكرون) . فالإشارة بقوله ذلكم تعني الوصايا التسع المذكورة ،
فكل من حافظ عليها كان من المفلحين . وكل من أخلف بها كان من الخاسرين .
وانتذكر ، الاتعاظ والانتفاع بالتذكرة والعمل بما تضمنته .

ثم قال تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله : ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون : ١٥٤)

المعنى العام

عن ابن عباس قال فى الآية فى قوله تعالى : (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) . وفى قوله : (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، ونحو هذا فى القرآن . قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة . وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات فى دين الله . وروى أحمد والنسائي والحاكم ، وقال صحيح على شرطهما عن ابن مسعود قال : خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، وخط عن يمينه وشماله ، ثم قال هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) . وروى أحمد والترمذى والنسائي عن الثواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال : ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعن جنبتي الصراط سوران فىهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس : هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال له : ويحك لا تفتحه فانك إن تفتحه تلجه . فالصراط الاسلام ، والسوران حدود الله . والأبواب المفتحة محارم الله . وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله . والداعي من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم .

ومعنى الآية وأن هذا الذى قص عليكم صراطى ، أى طريقى المستقيم فاتبعوه

ولا تتبعوا الطارق المضلة من البدع والمحدثات ، فتخرجكم عن سبيل الله ، وسبيل الله واحدة ، وسبيل الضلال كثيرة . ذلكم المذكور وصاكم به لتجتنبوا ما نهيتم عنه من الشرك والبدع والمعاصي فتفاجوا وتسعدوا .

ثم قال تعالى : (ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شئ وهدى ورحمة لعلمهم بلقاء ربهم يؤمنون : ١٥٥) (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوا واتقوا لعلكم ترحمون : ١٥٦) (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين : ١٥٧) أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها يستجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون : ١٥٨)

المعنى العام

قوله تعالى : (ثم آتينا موسى الكتاب) من باب عطف الخبر على الخبر ، أى ثم أخبركم (أنا آتينا موسى الكتاب) الخ . كقول الشاعر :

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم ساد من قبل ذلك جده

والمراد بـ (الكتاب) هنا التوراة . (تماما) أى إتماما لنعمة الله عليه بسبب إحسانه في طاعة الله والدعوة الى سبيله . (وتفصيلا) ، أى بيانا مفصلا لكل شئ احتاج اليه من الأحكام والإرشاد . (وهدى ورحمة) له ولقومه ليتعضوا بذلك ويتيقنوا لقاء الله في الدار الآخرة وجزاءه لهم . وقد اختلف المفسرون في لفظ ، (الذى) ، أهو موصول حرفي ، أم موصول اسمي ، وهل هو بمعنى الجمع أو الأفراد ، فضربت عن ذلك صفحا ، لأنه ليس من غرضي في هذا الكتاب الذى اهتم فيه بالوعظ

والارشاد في الدرجة الأولى . ثم قال تعالى : (وهذا) أى القرآن (كتاب أنزلناه) على محمد (مبارك) على كل من اتبعه وعمل بما فيه لا يبقى شئ من بركات الدنيا والآخرة إلا ناله . (فاتبعوه و اتقوا) الله ولا تحالفوه لعلكم ترحون رحمة تضمن لكم سعادة الدارين ، أنزلناه على محمد النبي العربي لئلا تقولوا أيها العرب معتذرين ، (إنما أنزل الكتاب التوراة والإنجيل على طائفتين من قبلنا) ، هم اليهود والنصارى ، وما كنا إلا غافلين عن دراستهم ، لأننا لا نعرف لغتهم ، ولا اتصال بيننا وبينهم يعرفنا ما عندهم من العلم . (أو تقولوا) ، لو أنزلت يا رب علينا الكتاب السدى أنزلته عليهم لكننا أكثر اهتداء منهم واتباعا لما أنزلت . ونظير ذلك في كتاب الله قوله تعالى في سورة القصص : (ولو لا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين : ٤٨) وقوله تعالى في سورة فاطر (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكون أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا : ٤٣) استكبارا في الأرض ومكر السيء ولا يجيق المكر السيء إلا بأهله) ثم قال تعالى (فقد جاءكم بينة من ربكم) الخ . أى رسول منكم بكتاب عربي مبين تفهمونه ، وهو رحمة لكم إذا اتبعتموه يخرجكم من الظلمات إلى النور ومن الضيق إلى السعة ، ومن الخوف إلى الأمن ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الشقاء إلى السعادة الأبدية . فن أظلم ممن كذب بآيات الله فلم ينتفع بها في نفسه ولم يكفه ذلك حتى صدف الناس عن الإيمان بها وصرفهم عن ذلك فهو أظلم الظالمين . ثم توعدهم تعالى بقوله : (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سره العذاب بما كانوا يصدفون) ، وقد جزاهم الله سوء العذاب ولا يزال يجزيهم . فان كل أمة وصلها القرآن وعرفته وقامت عليها حجة الله ، ثم تركته وأعرضت عنه حل بها الهلاك وسلها الله

نعمه وصب عليها النقم وردت الى أسفل سافلين .

ثم قال تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ، قل انتظروا انا منتظرون : ١٥٩)

المعنى العام

قال البخارى فى تفسير هذه الآية بسنده الى أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا رآها الناس آمن من عليها فلذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل . ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور : ٢١١) وكقوله تعالى فى سورة الفجر : (وجاء ربك والملك صفا صفا : ٢٣) والسلف الصالح يؤمنون بمثل هذه الآيات ولا يتعرضون لها بتساويل ولا تعطيل مع تنزيه الله تعالى عن مشابهاة مخاوقاته . والمراد بآيات ربك هنا ، أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها فاذا ظهرت تلك الآيات يحق العذاب على الكافرين وينسد باب التوبة والإيمان . والاستفهام هنا بمعنى النفي ، أى ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك . وقوله تعالى : (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيرا) . مر عليه أكثر المفسرين مرور الكرام باللاغو خوفا على مذاهبهم فى العقيدة . فنسأل الله أن يحفظنا من أسر التعمد والتقليد . والمعنى ، يوم يحيى بعض آيات ربك ، كطلوع الشمس من مغربها لا ينفع نفسا إيمان جديد لم يكن عندها من قبل ، ولا إيمان

والارشاد في الدرجة الأولى . ثم قال تعالى : (وهذا) أى القرآن (كتاب أنزلناه) على محمد (مبارك) على كل من اتبعه وعمل بما فيه لا يبق شئ من بركات الدنيا والآخرة إلا ناله . (فاتبعوه واثقوا) الله ولا تخالفوه لعلكم ترحمون رحمة تضمن لكم سعادة الدارين ، أنزلناه على محمد النبي العربي لئلا تقولوا أيها العرب معتذرين ، (إنما أنزل الكتاب التوراة والإنجيل على طائفتين من قبلنا) ، هم اليهود والنصارى ، وما كنا إلا غافلين عن دراستهم ، لانا لا نعرف لغتهم ، ولا اتصال بيننا وبينهم يرفنا ما عندهم من العلم . (أو تقولوا) ، لو أنزلت يا رب علينا الكتاب الذى أنزلته عليهم لكننا أكثر اهتداء منهم واتباعا لما أنزلت . ونظير ذلك فى كتاب الله قوله تعالى فى سورة القصص : (ولو لا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين : ٤٨) وقوله تعالى فى سورة فاطر (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكون أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا : ٤٣) استمكبارا فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) ثم قال تعالى (فقد جاءكم بينة من ربكم) الخ . أى رسول منكم بكتاب عربى مبين تفهمونه ، وهو رحمة لكم إذا اتبعتموه يخرجكم من الظلمات الى النور ومن الضيق الى السعة ، ومن الخوف الى الأمن ، ومن الفقر الى الغنى ، ومن الشقاء الى السعادة الأبدية . فن أظلم ممن كذب بآيات الله فلم ينتفع بها فى نفسه ولم يكفه ذلك حتى صدف الناس عن الايمان بها وصرفهم عن ذلك فهو أظلم الظالمين . ثم توعدهم تعالى بقوله : (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) ، وقد جزاهم الله سوء العذاب ولا يزال يجزيهم . فان كل أمة وصلها القرآن وعرفته وقامت عليها حجة الله ، ثم تركته وأعرضت عنه حل بها الهلاك وسلها الله

لعمه وصب عليها النقم ورددت الى أسفل سافلين .

ثم قال تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ، قل انتظروا أنا منتظرون : ١٥٩)

المعنى العام

قال البخارى فى تفسير هذه الآية بسنده الى أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا رآها الناس آمن من عليها فلذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل . ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور : ٢١١) وكقوله تعالى فى سورة الفجر : (وجاء ربك والملك صفا صفا : ٢٣) والسلف الصالح يؤمنون بمثل هذه الآيات ولا يتعرضون لها بتأويل ولا تعطيل مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة مخاوقاته . والمراد بآيات ربك هنا ، أشرط الساعة كطلوع الشمس من مغربها فاذا ظهرت تلك الآيات يحق العذاب على الكافرين وينسد باب التوبة والإيمان . والاستفهام هنا بمعنى النفي ، أى ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك . وقوله تعالى : (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيرا) . مر عليه أكثر المفسرين مرور الكرام باللغو خوفا على مذاهبهم فى العقيدة . فنسأل الله أن يحفظنا من أسر التمدد والتقليد . والمعنى ، يوم يحى بعض آيات ربك ، كطلوع الشمس من مغربها لا ينفع نفسا إيمان جديد لم يكن عندها من قبل ، ولا إيمان

كان عندها من قبل ولم تكسب فيه خيرا ، أى لم تعمل أى عمل صالح ، بل اقتصررت على مجرد التصديق بزعمها ولم تقرنه بشئ من الأعمال . والعمل من الايمان . فقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ الايمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياة شعبة من الايمان . وقوله تعالى : (قل انتظروا انا منتظرون) تهديد للاشركين بعذاب الله الذى هو حال بهم لا محالة إن لم يؤمنوا بالله ورسوله وما جاء به . قالنبي ﷺ ينتظر نصر الله والقضاء على أعداء الاسلام ، وأعداء الاسلام ينتظرون حتفهم . وقد تحقق ذلك للمسلمين وللكافرين ، كل منهم أدرك ما وعده الله أو أوعده به .

ثم قال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ ، انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون : ١٦٠) من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون : ١٦١)

المعنى العام

قوله تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم) الخ - أى تفرقوا فيه (شيعا) أى فرقا . (لست منهم فى شئ) أى أنت برى منهم براءة تامة . (انما أمرهم الى الله) ، أى حسابهم وعقابهم الى الله موكل ، وهو الذى يخبرهم بما كانوا يفعلون ويعاقبهم عليه . ولهذا الآية نظائر فى الكتاب العزيز منها قوله تعالى فى سورة الشورى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه : ١٤) فأخبر سبحانه وتعالى أن ما شرعه لامة محمد من الدين هو عين ما شرعه للامم السابقة بواسطة

رسلمهم . فتوحيد الله واحدا ، وتصديق جميع الرسل واحدا ، وإقامة العدل والاحسان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وانصر المظلوم ، والتعاون على البر ، والجهاد في سبيل الله ، والرحمة لخلق الله . فهذه الأصول لا يختلف فيها دين أى رسول مع دين غيره من الرسل ، ومن توحيد الله جعل الحكم له وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه . والايان بالله ورسله يستلزم أنهم وخدم المتوسطون بين الله وعباده في تبليغ الأحكام ، فلا شارع إلا الله ولا مبلغ إلا رسل الله ، وكذلك المجتهد لا يدعى أنه حكم بين الخصمين بما أنزل الله ، بل يقول كما قال عبد الله بن مسعود . أقول فيها برأى ، فان كان صوابا فن الله ، وإن كان خطأ فنى ومن الشيطان ، والله ورسوله برى منه . أما تقليد غير المعصوم والاستغناء بما نقل عنه من الأقاويل عن كتاب الله والاعتماد فى الحكم والإفتاء على ذلك ونسبة ذلك الى الله ورسوله ، فهو افتراء على الله وصد عن سبيله وتبديل لدينه ، فنهوذ بالله من الخذلان . وهنا يحسن أن نقل من كلام الأئمة فى رد التقليد والتمذهب والتعصب ما يكون قررة عين لطالب الحق وسخنة عين للبتدعين الذين فرقوا دين الله وصدوا عن سبيل الله . وقبل أن أنقل هذه النبذة البسيرة أحيل القارىء على مطالعة كتاب اعلام الموقعين عن رب العالمين للإمام الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية ، وكتاب جامع بيان العلم وفضله للإمام الحافظ أبى عمر يوسف بن عبد البر النموى . وكتاب ايقاظ همم أولى الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار ، وتحذيرهم عن الابتداع الشائع فى القرى والأمصار ، من تقليد المذاهب مع الحمية والعصبية بين فقهاء الأعصار . للإمام المحقق ، بقية السلف ، صالح بن محمد بن نوح الفلافى المغربى . وكل هذه الكتب مطبوعة فى مصر . وهناك كتب أخرى تشتمل على مباحث قيمة فى هذا المعنى ، لكن الكتب

الثلاثة المتقدمة الذكر تفي عنها . قال الفلاني رحمه الله بعد ما ذكر الآيات الدالة على وجوب اتباع الكتاب والسنة في كل زمان ومكان وترك الافتراء والقضاء بالتقليد ، وما جاء في ذلك من الوعيد الشديد قال ما نصه في ص ٦ « وأما الأحاديث الدالة على وجوب العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فكثيرة ، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس « ان هلال بن أمية قذف امرأته بشريك ابن سخيماء عند النبي ﷺ ، فذكر حديث اللعان وقول النبي ﷺ ، أبصروها ، فإن جاءت به أكحل العينين ، سابغ الإليتين ، خداج الساقين ، فهو لشريك بن سخيماء ، وإن جاءت به كذا وكذا فهو لهلال بن أمية ، فجاءت به على النعت المكروه . فقال النبي ﷺ او لا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن . يريد والله أعلم بكتاب الله ، قوله تعالى : (ويدراً عنها العذاب ان تشهد أربع شهادات بالله) ويريد بالشأن والله أعلم أنه كان يجدها لمشابهة ولدها بالذي رميت به ولكن كتاب الله فصل الحكومة وأسقط كل قول وراه ، ولم يبق للاجتهاد بعده موضع .

قال محمد تقي الدين . اذا كان رسول الله ﷺ ، وهو سيد العلماء وإمام الأئمة ، وهو معصوم عن الخطأ أحجم عن الحكم برأيه احتراماً للنص القرآني عملاً بقوله تعالى في هذه السورة : (اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين - ١٠٧) فاذا وجب على النبي ﷺ أن يدع رأيه لكتاب الله فكيف لا يجب على غيره من الناس ، وهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ترك رأيهم اذا خالف نص الكتاب أو السنة ؟ هذا بيان ما قصده الأئمة من الاستدلال بهذا الحديث . ثم قال الفلاني رحمه الله ، وقال الشافعي في الرسالة التي أرسلها إلى عبد الرحمن بن مهدي : أخبرنا سفيان بن عيينة عن عبيد الله

ابن أبي يزيد عن أبيه قال : أرسله عمر بن الخطاب الى شيخ من زهرة كان يسكن دارنا ، فذهبت معه إلى عمر فسأل عن وليدة من ولائد الجاهلية ، فقال : أما الفراش لفلان ، وأما النطفة لفلان ، فقال صدقت ، ولكن رسول الله ﷺ قضى بالفراش .

قال محمد تقي الدين : وجه الاحتجاج بهذا الخبر من يفتى ويقضى بالتقليد أن عمر ابن الخطاب ، صدق الرجل في شهادته بأن النطفة لفلان ، يعنى الزانى بتلك الأمة ، والفراش لفلان ، يعنى الذى كان يملك تلك الأمة . ومع ذلك حكم بأن الولد للفراش عملاً بقول النبي ﷺ الرائد للفراش وللعاهر الحجر . رواه البخارى ومسلم وغيرهما لحكم بنص الحديث وترك الرأى جانباً .

ثم قال الفلافى قال الشافعى : وأخبرنى من لا اتهم عن ابن ابى ذئب ، قال اخبرنى مخلد بن خفاف ، قال ابتعت غلاماً فاستغلتته ، ثم ظهرت منه على عيب ، فخاصمت فيه الى عمر بن عبد العزيز فقضى لى برده ، وقضى على برد غلته ، فأتيت عروة فأخبرته فقال ، أروح اليه العشيّة ، فأخبره إن عائشة اخبرتنى أن رسول الله ﷺ قضى فى مثل هذا ، ان الخراج بالضممان ، فبعجلت الى عمر فأخبرته بما أخبرتنى به عروة عن عائشة عن رسول الله ﷺ ، فقال عمر بن عبد العزيز ، فما أيسر على من قضاء قضيتيه - والله يعلم انى لم أرد فيه إلا الحق فبلغتنى فيه سنة عن رسول الله ﷺ فأرد قضاء عمر وأنفذ سنة رسول الله ﷺ . فراح إليه عروة فقضى لى أن آخذ الخراج من الذى قضى به على له .

قال محمد تقي الدين : بيان هذا الخبر لمن يقصر فهمه عنه من القراء . أن مخلد ابن خفاف اشترى عبداً من رجل واستخدمه ، ثم ظهر له فيه عيب ، فسدعا

بايعه الى خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز الاموي ، فحكم عمر
 على البائع أن يأخذ العبد ويرد ثمنه الى المشتري ، وحكم على المشتري أن يعطى
 البائع أجره خدمة العبد في المدة التي بقى عنده ، ثم قصد مخلد عروة بن الزبير اخت
 عائشة وتلميذها فحكى له ما حكم به عمر ، فظفر لعروة أن ما حكم به عمر مخالف للحديث
 الذي رواه عن خالته عائشة عن النبي ﷺ ، وهو قضاؤه ان الخراج بالضمان .
 ومعنى هذا ان النبي ﷺ حكم في مثل هذه القضية أن المشتري لا يعطى البائع
 أجره خدمة العبد ، لأنه كان في ضمانه ، فلو تلف العبد أو سرق لم يكن للمشتري
 ان يطالب البائع بثمنه . فأجره خدمته تقابل ضمانه له . ومن الضمان ابواؤه
 والنفقة عليه . ووعد عروة السائل أن يذهب الى الخليفة عمر ويخبره بأن حكمه
 في تلك القضية مخالف لما حكم به النبي ﷺ ، غير أن الرجل لم يصبر حتى ينطلق
 عروة الى الخليفة ويخبره بذلك ، بل ذهب من فوره وأخبر الخليفة بما قاله عروة ،
 فقال الخليفة عمر بن عبد العزيز كلمته العظيمة . ومعناها ، ما أسهل على ان
 ارجع عن حكمي الذي حكمت به وأنفذ حكم رسول الله ﷺ . والله يعلم اني لم أرد
 بحكمي ذلك إلا الحق ، وهو الموافق لكتاب الله وسنة رسوله . واذ قد ظهر
 اني أخطأت فما أسهل الرجوع الى الحق . قال مخلد ، فذهب اليه عروة وأخبره
 بالحديث فحكى على البائع أن يرد لي ما أعطيته من أجره خدمة ذلك العبد مدة
 أقامته عندي . وفي هذه القصة فائدة أخرى جلية ، وهي ان ملوك المسلمين في
 ذلك الزمان كانوا يدعون للحق . يفرحون به وينفذونه ، ولم يكن العلماء يهابونهم
 اذا أخطأوا في الحكم ان يملوهم بخطتهم . وهذا يفسر لنا ما أدركه المسلمون في
 ذلك الزمان من العزة والسؤدد . فأين هذا من الديمقراطية التي يتبجح بها أهل

هذا الزمان لا جرم لو أن قاضيا من قضاة العصور المتأخرة حكم بحكم مجاهه عالم وأخبره بخطئه لكان نصيب ذلك العالم ان يسمع منه ما يكره ، هذا اذا لم يأمر بجسسه . هذا اذا اعترض على قاض فقط ، فكيف بمن هو فوقه من الرؤساء كوزير العدل ، فضلا عن رئيس الدولة .

ثم قال الفلاني قال الشافعي : وأخبرني من لا اتهم من أهل المدينة عن ابن أبي ذئب قال : قضى سعد بن ابراهيم على رجل بقضية برأى ربيعة ابن أبي عبد الرحمن فأخبرته عن النبي ﷺ بخلاف ما قضى به . فقال سعد لربيعة ، هذا ابن أبي ذئب ، وهو عندي ثقة يخبرني عن النبي ﷺ بخلاف ما قضيت به ، فقال له ربيعة : قد اجتهدت ومضى حكمك . فقال سعد : واعجبا ، أنفذ قضاء سعد بن أم سعد و ارد قضاء رسول الله ، بل أرد قضاء سعد بن أم سعد ، وأنفذ قضاء رسول الله ﷺ ، فدعا سعد بكتاب القضية فشقه ، وقضى للقضى عليه .

فعليك بقراءة هذا الكتاب ، فان فيه من الفوائد العلية ما تشد حاجة كل طالب علم الى معرفته . والآن انقل شيئا قليلا من كلام الامام بن عبد البر في فساد التقليد في دين الله وبطلانه . قال ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ١٠٩ / ما نصه .

(باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع)

قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه فقال : (إلتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) وروى عن حذيفة وغيره قالوا لم يعبدوهم من دون الله ، ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم . وقال عدى ابن حاتم ، أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب ، فقال لي : يا عدى :

التي هذا الوثن من عنقك وانتهيت اليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال قلت يا رسول الله انا لم اتخذهم أربابا ، قال بلى ، أليس يحملون لكم ما حرم عليكم فتحلون به ، ويحرمون عليكم ما أحل الله لكم فتحرمونه ، فقلت بلى ، فقال تلك عبادتهم . ثم روى بسنده الى أبي البحتري في قوله عز وجل (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال : أما انهم لو أمرهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ، ولكنهم أمرهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فأطاعوهم ، فكانت تلك الربوبية . ثم قال أبو عمر وقال جل وعز (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارتهم مقتدون ، قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء ، فقالوا (انا بما أرسلتم به كافرون) وفي هؤلاء ومثلهم قال الله جل وعز (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) وقال (اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وراوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبتروا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) وقال جل وعز عائبا لأهل الكفر وذاما لهم (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) وقال (انا أطعنا سادتنا وكبرائنا فأضلونا السبيلا) ومثل هذا في القرآن كثير من ذم التقليد الآباء والرؤساء . وقد احتج العلماء بهذه الآيات في ابطال التقليد ، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها ، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر ، وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للقلد ، كما لو قلد رجل فكفر . وقلد آخر فأذنب ، فقلد آخر في مسألة دينية فأخطأ وجهها ، كان

كل واحد ماوما على التقليد بغير حجة ، لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا
وان اختلفت الآثام فيه ، ثم قال أبو عمر : ص ١١٦

وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية
عقلية بعد ما تقدم ، فأحسن ما رأيت من ذلك قول المزني رحمه الله ، وأنا أورده ،
قال : يقال لمن حكم بالتقليد ، هل لك من حجة فيما حكمت به ، فإن قال نعم ،
أبطال التقليد ، لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد . وإن قال حكمت فيه
بغير حجة ، قيل له ، فلم أرقت الدماء وأبحت الفروج وأتلفت الأموال ، وقد
حرم الله ذلك إلا بحجة . قال الله جل وعز (هل عندكم من سلطان بهذا)
أى من حجة بهذا ، قال ، فإن قال : أنا أعلم أنى قد أصبت ، وان لم أعرف
الحجة ، لأنى قلدت كبيرا من العلماء ، وهو لا يقول الا بحجة خفيت على ، قيل
له ، اذا جاز لك ان تقلد معلمك ، لأنه لا يقول الا بحجة خفيت عليك ، فقلد
معلم معلمك ، لأنه لا يقول الا بحجة خفيت على معلمك . كما لم يقل معلمك إلا
بحجة خفيت عليك ، فإن قال نعم : ترك تقليد معلمه الى تقليد معلم معلمه ،
وكذلك من هو أعلى حتى ينتهى الأمر الى أصحاب رسول الله ﷺ . وان أبى
ذلك نقض قوله ، وقيل له : كيف تجوز تقليد من هو اصغر منك وأقل علما ،
ولا تجوز تقليد من هو أكبر وأكثر علما ، وهذا متناقض . فإن قال : لأن
معلمى ، وان كان اصغر ، فقد جمع علم من هو فوقه الى علمه ، فهو أبصر بما
أخذ وأعلم بما ترك . قيل له ، وكذلك من تعلم من معلمك : فقد جمع علم
معلمك ، وعلم من فوقه الى علمه ، فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك
وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك ، لأنك جمعت علم معلمك وعلم

من فوقه الى عدك . فان أعاد قوله ، جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء
أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله ﷺ . وكذلك الصاحب عنده يازمه تقليد
التابع والتابع من دونه في قياس قوله والأعلى الأدنى أبدا . وكفى بقول يؤول
الى هذا قبحا وفسادا .

قال ابو عمر (يعنى نفسه) وقال اهل العلم والنظر : حـد العلم التبيين
ولادراك المعلوم على ما هو به فمن بان له الشئ فقد علمه ، قالوا ، والمقلد
لا علم له ، ولم يختلفوا في ذلك ، ومن هاهنا والله أعلم قال البيهقي .

عرف العالمون فضلك بالعلم - وقال الجمهور بالتقليد

وقال أبو عبد الله بن خويز منداد البصرى المالكي : التقليد معناه في الشرع
الرجوع ، الى قول لاحجة لقائله عليه ، وذلك ممنوع منه في الشريعة ، ولاتباع ما
ثبت عليه حجة . وقال في موضع آخر من كتابه : كل من اتبع قول من غير
ان يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فانت مقلده . والتقليد في دين الله غير
صحيح . وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله . فانت متبعه ، والاتباع في الدين
ممنوع ، والتقليد ممنوع .

وذكر محمد بن حارث في أخبار سخنون بن سعيد عن سخنون قال كان
مالك بن أنس وعبد العزيز بن أبي سلمة و محمد بن إبراهيم بن دينار وغيرهم
يختلفون الى ابن هرمز ، فكان اذا سأله مالك وعبد العزيز اجابهما ، واذا
سأله ابن دينار وذووه لا يجيبهم ، فتمرض له ابن دينار يوما فقال له ، يا أبا بكر
بم تستحل منى ما لا يحل لك قال له ، يا ابن أخي ، وما ذاك ؟ قال يسألك
مالك وعبد العزيز فتجيبهما ، وأسألك انا وذوى فلا تجيبنا ، فقال اوقع ذلك

يا ابن أخى فى قلبك؟ قال نعم، قال انى كبرت سنى ورق عظمى وأنا أخاف أن يكون خالطى فى عقلى مثل الذى خالطنى فى بدنى، ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان، اذا سمعا منى حقا قبلاه، واذا سمعا خطأ تركاه، وأنت وذووك ما أحببتكم به قباتموه.

قال ابن عبد البر، قال أبو عمر: يقال لمن قال بالتقليد، لم قلت به وخالف السلف فى ذلك فانهم لم يقلدوا، فان قال قلت، لأن كتاب الله جل وعز لا علم لى بتأويله وسنة رسوله لم أحصها، والذى قلده قد علم ذلك فقلت من هو أعلم منى. قيل له، أما العلماء اذا اجتمعوا على شىء من تأويل الكتاب أو حكاية سنة عن رسول الله ﷺ أو اجتمع رأيهم على شىء فهو الحق، لا شك فيه، ولكن قد اختلفوا فيما قلده فيه بعضهم دون بعض، فما حجتك فى تقليد بعض دون بعض، وكلهم عالم، ولعل الذى رغبت عن قوله أعلم من الذى ذهب الى مذهبه، فان قال، قلده، لاني علمت أنه صواب، قيل له علمت ذلك بدليل من كتاب أو سنة أو اجماع؟ فان قال نعم: فقد أبطل التقليد، وطوب بما ادعاه من الدليل وان قال، قلده، لأنه أعلم منى قيل له، فقلدك من هو أعلم منك، فانك تجد من ذلك خلقا كثيرا. ولا يخص من قلده، اذ علمت فيه انه أعلم منك، فان قال قلده، لأنه أعلم الناس، قيل له، فهو اذا أعلم من الصحابة، وكفى بقول مثل هذا قبحا، وان قال، انما أقلد بعض الصحابة، قيل له، فما حجتك فى ترك من لم يقلد منهم، ولعل من تركت قوله منهم أفضل ممن أخذت بقوله، على ان القول لا يصح لفضل قائله، وانما يصح بدلالة الدليل عليه، انتهى كلام الامام ابن عبد البر.

وقوله تعالى : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . الخ . هذه الآية مفصلة لما أجمل في مثلها . وقد جاءت السنة موضحة لها . روى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : ان ربكم عز وجل رحيم ، من هم بحسنة فلم يعملها كتبى له حسنة ، فان عملها كتبت له عشر الى سبعمائة الى أضعاف كثيرة . ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فان عملها كتبت له واحدة أو يحوها الله عز وجل . و لا يهلك على الله إلا هالك . وروى مسلم عن ابى ذر قال ، قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل : من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو أغفر . ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقينى لا يشرك بى شيئا جعلت له مثلها مغفرة ، ومن اقترب إلى شبرا اقتربت إليه ذراعا ، ومن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعا ، ومن أتانى يمشى أتته هرولة .

ثم قال تعالى : (قل انى هدانى ربي إلى صراط مستقيم ديننا قيامة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين : ١٦١)

المعنى العام

أمر الله نبيه أن يخبر جميع الناس بما أنعم الله عليه به من هدايته الى صراط مستقيم وذلك الصراط المستقيم هو الدين الذى بلغ الغاية فى الكمال وهو ملة ابراهيم حنيفا ، أى متمسكا بدين التوحيد تاركا كل ما خالفه ، (وما كان من المشركين) توكيد لما كان عليه من التوحيد ، وتعظيم لشأن التوحيد ، لأنه الاصل الأعظم لدين الحق الذى بعث الله به جميع الرسل والذى لا يرضى غيره لقوله تعالى فى سورة النساء (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك

لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما : ٤٨) فان الله لا يقبل صلاة
 ولا صياما ولا صدقة ولا حججا ولا عمرة ولا جهادا ولا غير ذلك من الاعمال
 الصالحة إلا إذا جاء مع توحيده باخلاص العبادة له واعتقاد أنه رب كل شئ
 وخالق كل شئ والمتصرف في كل شئ لا يشاركه في ذلك احد ، لا نبي مرسل
 ولا ملك مقرب ولا عبد صالح . ومثل ذلك قوله تعالى في سورة النحل (ثم
 أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين : ١٢٣) قال ابن
 كثير : وليس يلزم من كونه أمر باتباع ملة ابراهيم الحنيفية أن يكون ابراهيم
 أكمل منه فيها ، لأنه عليه السلام قام بها قياما عظيما وأكملت له إكمالها تاما
 لم يسبقه أحد الى هذا الكمال . ولهذا قال ، انا خاتم الانبياء وسيد ولد آدم
 على الاطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب اليه الخلق ، حتى الخليل عليه
 السلام . وأخرج ابن مردويه بسنده الى ابن أبي عمير عن أبيه قال : كان رسول الله
 ﷺ اذا أصبح قال : أصبحنا على ملة الاسلام وكلمة الاخلاص وملة ابراهيم
 حنيفا وما كان من المشركين . وروى أحمد بسنده الى ابن عباس قال ، قيل
 لرسول الله ﷺ أى الأديان أحب الى الله تعالى ، قال : الحنيفية السمحة . وروى
 أحمد أيضا بسنده الى عائشة قال ، وضع رسول الله (ص) ذقني على منكبيه
 لأنظر الى زفن الحبشة حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه . قال ابن كثير عقب
 نقل هذا الحديث ، قال عبد الرحمن عن أبيه ، قال : قال لى عروة إن عائشة
 قالت قال رسول الله ﷺ يومئذ ليعلم يهود أن في ديننا فسحة ، أنى أرسلت
 بحنيفية سمحة ، أصل الحديث مخرج في الصحيحين ، والزيادة لها شواهد من طرق
 عدة . وقد استقصيت طرقها في شرح البخاري ولله الحمد والمنة . انتهى كلام

ابن كثير . وحديث عائشة وما في معناه يرد على الغلاة المتزمتين الذين يببالغون ويتشددون في الأمور التي جعل الله فيها فسحة فيخرجون بالدين عن يسره وسماحته ويبغضونه الى الناس . وقد قال النبي ﷺ كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا : فانما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » قال محمد تقي الدين : أى بعث نبيكم ميسرا ومبشرا ، ولم يبعث معسرا ومنفرا ، فدايكم أن تبلغوا رسالته على وجهها . فلا تضيقوا ما وسع الله ولا تحرموا ما أحل الله ولا تحلوا ما حرم الله .

ثم قال تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ١٦٢ :) (لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين : ١٦٣)

المعنى العام

لما كان المشركون في زمان النبي ﷺ وفي كل زمان ومكان يدعون غير الله لقضاء حاجاتهم) من جلب خير ودفع شر . ويذبجون الذبائح ويقربون القرابين لمن عبدوهم من دون الله أمر الله رسوله أن يقول لهم جميعا (إن صلاتي) أى دعائى واستغاثى وما يصحبها من ركوع وسجود وقيام وتضرع وتذلل وذبحى الذبائح إنما هو لله رب العالمين لا شريك له ، فلا أتوجه لغيره أبدا وما أمرنى الله إلا بذلك وأنا أول المسلمين ظاهرا وباطنا . فالنبي ﷺ هو أول المسلمين من هذه الأمة . فالنسك هو الذبح فى الحج والعمرة والأضاحى وغيرها مما يتقرب به إلى الله . وروى ابن أبى حاتم بسنده إلى ابن عباس قال ، ضحى رسول الله ﷺ فى يوم عيد النحر بكبشين . وقال حين ذبحهما ، وجهت وجهى للسدى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، (إن صلاتي ونسكى ومحياي

وَمَا تَى لِّلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِشَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) . قَالَ
 ابْنُ كَثِيرٍ ، وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) أَي مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ،
 وَهُوَ كَمَا قَالَ ، فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ، كُلُّهُمْ كَانَتْ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَصْلُهُ
 عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لِشَرِيكَ لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ
 قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ : ٢٥) وَقَدْ أَخْبَرَنَا
 تَعَالَى عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ ، فَإِنَّ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتِكُمْ مِنْ أَجْرٍ أَنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَيَّ
 اللَّهُ ، وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ١٣٠ - ١٣٢
 (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاهَةٍ نَفْسِهِ . وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ
 فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى
 بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ ، وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
 وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي
 مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَليٌّ فِي
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ : ١٠١) وَقَالَ مُوسَى فِي سُورَةِ
 يُونُسَ : (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ .
 فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ
 الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى
 وَنُورًا يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ : ٤٤)
 وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي
 قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ : ١١١)

فَالْإِسْلَامُ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ كَالْمَعْنَاءِ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِسْلَامِ النَّفْسِ لَهُ وَعَدَمِ

الترجى الى غيره البتة ، وهو معنى قوله تعالى فى سورة آل عمران (إن الدين عند الله الاسلام : ٩١) أى اسلام القلب لله . فالمسلم بهذا المعنى لا يمكن أن يشرك بالله شيئا .

ثم قال تعالى : (قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون : ١٦٤) وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فى ما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم : ١٦٥)

المعنى العام

قوله تعالى : (قل أغير الله أبغى ربا) الخ . قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله ، أغير الله أطلب ربا يحفظنى وينعم على ويدبر أمرى ويرحمى اذا مسنى الضر التجنى اليه فيكشفه عنى ، معاذ الله ان أفعل ذلك . كيف وهو رب كل شىء ، كل ما فى السموات والارض مربوب له هو الذى يحفظ وجوده ويمده بكل ما يحتاج اليه . وأمثال هذا فى القرآن كثير كما قال تعالى فى أول هذه السورة الآية (قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل انى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين : ١٤) وقال تعالى فى سورة آل عمران (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأيمانهم انهم لم يكونوا للمشركين : ٦٤) وقال تعالى فى سورة آل عمران أيضا (ولا يأمرکم ان تتخذوا الملائكة

والنبيين أربابا، أيامكم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون : ٨٠)

قال محمد تقي الدين : والعجب كل العجب من يقرأ هذه الآيات ، ومع ذلك إذا قام ينادى يا رسول الله ! وإذا قعد يستغيث يا رسول الله ، وإذا أفرجه أمر يهتف يا رسول الله ، وإذا سأل أحدا يقول أسئلك بالنبي ، وإذا حدثه أحد وأراد أن يتحقق صدقه يستحلفه بالنبي ، وإذا أراد أن يؤكد خبرا يحلف بالنبي وإذا أراد أن يدعو لأحد يقول جعلت في حمي النبي . فأمثال هذا يقرمون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، وهم الذين عنى الله سبحانه وتعالى بقوله في سورة الأنفال (وان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون : ٧٢) ومع ذلك فمؤلاؤه أبعده الناس عن طاعة الله ورسوله وعن اتباع سنته وعن تعظيم شريعته ، إنما هي ألفاظ شركية تلقفها الصغير من الكبير وورثها الآخر عن الأول وصارت من جملة كلمات اللغة التي يتحاورون بها فتعوذ بالله من الخذلان . وقال تعالى في سورة الزمر (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحى اليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين : ٦٤ - ٦٦) . وقد أدب الله سبحانه وتعالى خير خلقه محمدا ﷺ في القرآن الكريم فقال تعالى في آخر سورة هود (ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه) وقال تعالى في أواخر سورة الشعراء (وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين انه هو السميع العليم) وقال تعالى في سورة الملك (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين : ٢٩) وقال تعالى في سورة المزمل (رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا : ٩) وهذا الأدب العظيم

شامل لأمته ، وهم معنيون به لقوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني)
ثم قال تعالى : (ولا تكسب كل نفس إلا عليها .) وفسره بقوله (ولا تزر
وازره وزر أخرى .) يعنى أن كل انسان إنما يؤاخذ بذنبه ، ولا يؤاخذ أحد بذنب
غيره كما قال تعالى فى سورة فاطر (ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع
مثقلة الى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى : ١٧) وقال تعالى فى سورة
طه (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما : ١١٢)
قال ابن كثير : قال علماء التفسير : أى فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ،
ولا يهضم بأن ينقص من حسناته . وأما قوله تعالى فى سورة العنكبوت (وقال
الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من
خطاياهم من شىء لأنهم الكاذبون . وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسألن
يوم القيامة عما كانوا يفترون : ١٢ - ١٣) فهو كقوله تعالى فى سورة النحل
(واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ، قالوا أساطير الأولين : ٢٥) ليحملوا أوزارهم
كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون)
وبيان ذلك ما أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ
من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل اجور من تبعه لا ينقص ذلك من اجورهم
شيئا . ومن دعا الى ضلالة ، كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك
من آثامهم شيئا) وقوله تعالى ، (ثم الى ربكم مرجعكم) ، الخ . وعيد لمن أشرك
بالله وأعرض عن كتابه واتباع رسوله أن الله يحصى كل شىء من عمله ويخبره به
يوم الجزاء ثم يعاقبه عليه . وقوله تعالى ، (وهو الذى جعلكم خلائف الارض) الخ .
الخلائف جمع خليفة ، وهم القوم يخاف بعضهم بعضا ، يذهب هذا الجيل ويأتى جيل آخر .

وتذهب هذه الدولة وتأتى دولة أخرى مكانها . وهذا كقوله تعالى فى سورة الزخرف (ولو نشاء لجماننا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون : ٦٠) وكقوله تعالى فى سورة الأعراف (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون : ١٢٩) وقال تعالى فى آخر سورة محمد ﷺ (وإن تولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) وأمثال ذلك فى القرآن كثير . وقوله سبحانه (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) ألخ أى فضل بعضكم على بعض فى الأرزاق والجاه والأخلاق والمناظر والأشكال والقوى كما قال تعالى فى سورة الزخرف (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات : ٢٢) وله الحكمة البالغة فى ذلك فلو جهلهم سواء لفقدهم التعاون ولم يبق لأحد فضل على أحد ، ولتعطلت حكمة الاختبار والابتلاء . قال تعالى (ليلوكم فيما آتاكم من النعم فيظهر فضل الشاكر لأنعم الله فيزيده الله ويظهر بطن الكافر فينتقم الله منه . أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى قال ، قال رسول الله ﷺ ، إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فذاظروا ما تحملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء .

قال محمد تقي الدين : فى معنى قوله تعالى فى سورة الزخرف (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) . هذه قاعدة عظيمة وحكمة بالغة من علوم القرآن يحفلها كثير من البشر ، ولو عرفوها لصلحت أحوالهم ورغد عيشتهم واطمأنت نفوسهم وسعدوا فى عاجلهم وآجلهم . والناس فى هذا الزمان من حيث الأرزاق والأموال على مذاهب ثلاثة ، مذهب أصحاب رؤوس الأموال ، ومذهب الاشتراكيين ، ومذهب الشيوعيين . أما أصحاب رؤوس

الأموال ، فيعتقدون ان كل انسان حر فيما يكتسبه من المال بأى طريق ما دام
 لا يخالف القانون الذى يضعه ويطبقه أصحاب رؤوس الأموال انفسهم فيملك ما
 شاء من الأموال المنقولة وغير المنقولة بطريق الربوا والتجارة المطلقة . وكل ما
 ملكه بأى وجه فهو له لا يجب عليه فيه حق لأحد ، ولنضرب لذلك مثلا ، قوم
 جاؤا الى ارض واستوطنوها واقتسموها فأخذوا يستثمرونها ، فكان بعضهم
 قادرا على الاكتساب عالما بطرق جمع المال ، له فى ذلك حيل وافرة ووجوه
 مختلفة ، وكان سائرهم قاصرين فى ذلك ، فلم تمض إلا مدة من الزمان غير طويلة
 حتى أخذ عامتهم يخرجون من أراضيهم بالبيع والرهن ويستدينون من أولئك
 الدهاء حتى أصبحوا فقرا معدمين وانحصرت الأرض والأموال فى شريحة قليلة .
 وأصبح أكثر أهل القرية عالة عليهم يتحكم الممولون فى رقابهم ويستخرونهم
 فى خدمتهم وما يشاؤون من الأعمال ، ولا يعطونهم من الأجور إلا شيئا قليلا
 لا يكاد يكفيهم لأدنى معيشة . وقد يقل الممولون ويبتلع بعضهم بعضا حسب
 مقدارتهم واحتياهم ، وربما انحصر الملك والمال والسيادة فى رجل واحد ،
 وصار أهل القرية عبيدا له يشقون كلهم لسعاده ، فهذه معضلة تحتاج الى حل
 فماذا يعمل هؤلاء المساكين الذين يستثمرون تلك الأموال ويحفظونها وينسونها
 ولا يتالون منها شبع بطونهم وكسوة أجسامهم ومساكن تقيهم من الحر والبرد
 والأمطار . أيثرون عليه ويقتلونه ؟ ويعيدون قسم الأرضى ، لو فعلوا ذلك لجرى
 عليهم من التقلبات والتغيرات ما جرى على أسلافهم حتى تعود المعضلة كما كانت .
 وهذا ليس بحل للمعضلة ، وإنما هو امتداد وتسلسل للمعضلات والشقاء . أم تقوم
 جماعة منهم فتجعل نفسها وصية على سائرهم بدعوى أنهم سفهاء ، وهذه الجماعة

أهل عقل ورشد فتسيطر تلك الجماعة على جميع أهل القرية وتحكم في رقابهم
 وأعمالهم ، وما ثمره أعمالهم من أموال وازراق . وكلما مات واحد من تلك
 الجماعة أو تعطل عن العمل لشيخوخة أو مرض أو غضب عليه جمهورهم فعزلوه
 انتخبوا واحدا من العامة وجعلوه مكانه . وإذا اتفق أن أحدا من العامة سخط
 على ذلك النظام أو استقل أجرته أو شكى الجوع أو ضيق المعيشة ، فإن مصيره
 الحبس والتعذيب والاتهام بالحياة والخروج من ربة الطاعة . هذا حل صحيح
 للمضلة . أما أنا فأظن انه في غاية الفساد ، وقد تكون هذه الحالة التي صارت إليها
 هذه الجماعة شرا مما قبلها ، فإن استبداد شخص واحد أو أشخاص قليلين
 واستيلائهم على الأموال وتحكمهم في رقاب العامة دون أن يكون طؤلام المتحكمين
 نظام يوحد بينهم ورابطة تربطه وجيش يصلون به وقانون يصلونه سيفيا على
 رؤوس المستضعفين أقل شرا وأخف ضررا ، لأن أولئك المستضعفين يمكنهم ان
 يسترحموا ذلك القوى ، أو أولئك الأقوياء ويشتكوا لهم سوء حالهم فيرحمهم
 بعض الرحمة ، ولا يوجد قانون يمنعهم من ذلك ولا شرطة ولا جيش . وقد
 يلجئون الى الاضراب وترك الشغل ، فيضطر المالك أن يجب بعض مطالبهم . أما
 في الحالة الثانية فلا يمكنهم شئ من ذلك . فان قيل فلماذا يؤول الأمر ، ولا بد
 الى استيلاء قليل من الجماعة على أموال أكثرهم ؟ أفلا يمكن أن يبقوا متساوين
 على قسمتهم الأولى ، كل يزرع أرضه ويعيش بما يخرج منها ، فالجواب ، لا ،
 لأن الله قسم العقول المدبرة والكفاءات والمؤهلات ولم يجعل الناس في ذلك سواء .
 وهذا معنى قوله تعالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) فلا
 يستطيع جمع المال وتنميته واستثماره إلا من وهبه الله ملكة خاصة . وما أحسن
 ما قال بعضهم في ذلك .

كم عالم يسكن بيتا بالكسرا و جاهل يملك أرضا وقرى

لما قرأنا قوله سبحانه نحن قسمنا بينهم زال المرا

وقال بعض الزنادقة :

كم عالم عالم ضاقت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الاقسام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

فان قلت فيما هو الحل ، فالجواب هو القوانين الذى أنزله الله على عبده
ورسوله محمد ﷺ ، وهو اباحة الملك الفردى بالغ ما بلغ من الكثرة مقيدا
بشروط وقوانين . منها تحريم الغش والخداع ، ومنها تحريم بعض البيوع التى
فيما استثمار أو حيف . ومنها تحريم الربى بته . ومنها وجوب الزكاة وإجبار
من وجبت عليه على دفعها ، ولو بالقتال ان اضطر اليه أولوا الامر كما فعل أبو بكر
الصديق وواقفه أصحاب رسول الله ﷺ كلهم . وهذا الحل هو افضل الحلول ، وعلى
ذلك فانه لا يسوى بين الناس فى الاموال ، فان التسوية بينهم لا سبيل اليه أبدا ،
لأن التفاوت فى المؤهلات جبلة قد جبل عليها البشر لا تبدل لخلق الله ، وهذا
افضل علاج لهذه المشكلة الاجتماعية .

وقد حاول الأثرا كيون الديمقراطيون والمستبدون أن يحلوا هذه المشكلة
بحلول وضعوها بمقولاتهم القاصرة وشمائلهم الجائرة ليضاهتوا بها شريعة الله ، منها
التأميم ، ومنها كثرة الضرائب على الأعمال والممتلكات . وهيئات هيئات ، أن يحدوا
قانونا اجتماعيا لإصلاحيا يكفل تعاون الناس وتعادل معيشتهم إلى حد ما ،
ومحو الضغائن من قلوبهم ورضا أفرادهم وجماعاتهم بما قسم الله لهم كالشريعة
المحمدية الغراء التى ليست رأس مالبة و لا شيوعية و لا اشتراكية ، بل كل ما فى

تلك الأنظمة من صواب وخير فقد سبقت اليه وبينته غاية البيان . وكل ما فيها من شر فقد رفضته وابتعدت منه فخرجت من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين .

ثم قال تعالى : (ان ربك سريع العقاب) أى لمن عصاه وخالف أمره يسرع اليه عقاب الله فى الدنيا والآخرة كما عاقب اعداء الاسلام من كفار العرب فى غزوة بدر وما بعدها من الغزوات ، وما زال عقابه يسرع الى أعدائه فى كل زمان ولا يزال كذلك . وانه لغفور رحيم لذنوب أوليائه المتمسكين بدينه المتبعين لكتابه وسنة رسوله ، جعلنا الله منهم .

وهذا آخر ما يسره الله من تفسير هذه السورة المباركة . وكان الفراغ منه عشية يوم السبت لاثنتى عشرة خلون من جمادى الآخر سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ١٣٨٤ من هجرة النبي الاكرم ﷺ . بمدينة مكناس خرسمها الله من كل بأس والحمد لله رب العالمين .

